سلسلة الآثـار الكاملـة ـ ٧ـ

# الحج
# الفريضة الخامسة

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

عباس أمير زادة

دار الأمير

# الحج
# الفريضة الخامسة

إسم الكتـاب : الحج ـ الفريضة الخامسة

إسم المؤلــف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : عباس أمير زادة

تنضيد وإخراج : زهرين

تصميم الغلاف : بشير محمد

الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-09-8

الطبعة الأولى : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشـــــــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

كافة الحقوق محفوظة ومُسجّلة قانونياً للناشر بالإتفاق مع ورثة المُؤلف

التوزيع في العراق:
دار الباقر ــ النجف الاشرف هـ :07801263579

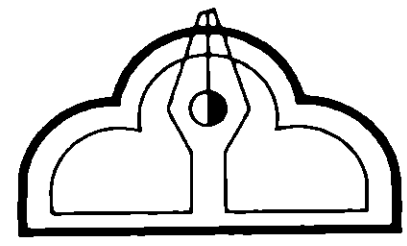

دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا ـ بيروت ـ لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com

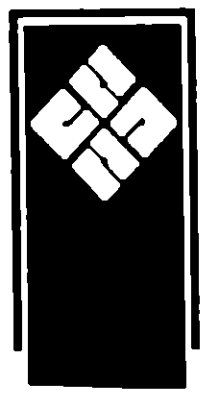

مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 19395-6516 طهران
www.shariati.com

# وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

**محمد حسين بزي**

## بسم الله الرحمن الرحيم

لا أدري عزيزي القارىء من أين أبدأ؟
ولا أدري بماذا أبدأ؟

وأنا على هذه الحال قررت أن ألخّص قصتي مع هذا الكتاب، وهي من شقّين:

الأول: الدافع الحقيقي والمباشر للتعرّف على الكتاب، وهو بفضل صديقي الدكتور «المغربي» الذي يعمل حالياً مدرساً في جامعات إيطاليا.

الثاني: الدافع الحقيقي والمباشر لنشر هذا الكتاب.

وحتى لا أطيل عليك عزيزي القارىء أبدأ هذه القصة مع شقها الأول:

في النصف الأول من العام الميلادي الحالي (٢٠٠٢) كنت مشاركاً بصفتي كناشر في أحد المعارض التي تنظمها دولة عربية خليجية، وأثناء وجودي في الجناح المخصص لي من المعرض حضر شخص تنبي ملامحه عن نقاء سريرة وصفاء نفس، سلّم بتحيّة الإسلام وقال: هنا دار الأمير أليس كذلك؟ فأجبته: نعم. قال: أنتم الذين تقومون بنشر مؤلفات د. شريعتي؟ فأجبته بالإيجاب، ثم سأل عن كتاب الحج. قلت: حتى الآن لم ننشره ولكننا سنقوم بنشره ضمن «مجموعة الآثار الكاملة».. فتنهّد تنهيدة قد سمعها من هم على بعد بضعة أمتار منّا، ما دعاني لأسأله لماذا كتاب الحجّ تحديداً؟ قال يا أخي دعك من هذا وهمَّ ليسأل عن كتاب آخر للدكتور، فلم أنتظر حتى يكمل سؤاله، فقاطعته مؤكداً على استفساري، فتكرّم مجيباً وبابتسامة لطيفة ارتسمت على محيّاه، لكن نظرة

سارحة ابتعدت به عني، غير أنه سرعان ما قال: يا أخي لقد أعدت بي الذاكرة لعشرين سنة أو يزيد.. لا بأس دكتور تكلم.. وهنا قال:

في العام الذي انتصرت فيه الثورة الإسلامية في إيران أو العام الذي يليه جئت إلى مكة لأداء فريضة الحج، وهناك التقيت بالدكتور الشهيد مفتح[1] ـ ولا أدري إن كان يعرفه من قبل ـ وكان يحمل معه كتاب الحج للدكتور شريعتي، وعندما بدأنا بمناسك الحج أخذ الشهيد مفتح يترجم لي بعض الفقرات التي تتعلق بهذا المنسك وفلسفته، وهكذا فعل مع كافة المناسك، وما زالت دموع مفتح وهو يترجم تلك الفقرات أمام عيني حتى الآن ـ وهنا بكى صديقنا المغربي و... هذه يا أخي خلاصة القصة، فما كان مني إلاّ أن عانقته واعداً بالبحث عن الكتاب، متسائلاً في نفسي أي كتاب هذا الذي يجعل مفتح الشخصية العملاقة تجهش بالبكاء على هذا النحو، وبعد جهد متواصل توصلت إلى الكتاب وقرأته مرة.. مرتين.. ثلاث، حينئذ عذرت الدكتور «المغربي» في إلحاحه على الكتاب، وفهمت حينها دموع الدكتور مفتح (رضوان الله عليه).

وهنا عزيزي القارىء وصلت إلى الشق الثاني من القصة وهو: إنني وبعد قراءتي لهذا الكتاب خلت نفسي وكأني لم أحجّ، لذا ارتأيت أن اقدّمه للقارىء الكريم ليفهم فلسفة الحج كما رآها الدكتور شريعتي والله من وراء القصد. والحمد لله رب العالمين.

**محمد حسين بزي**

**بيروت في ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٢م**

---

(١) أحد قادة الثورة الإسلامية البارزين، وعميد كلية الإلهيات في طهران، والمؤسس للوحدة بين الجامعة الحوزة العلمية. استشهد على يد منظمة «الفرقان» على مدخل الجامعة في بداية الثمانينيات، أطلق الإمام الخميني هذا اليوم «يوم الوحدة بين الجامعة والحوزة» تخليداً لذكراه.

الدكتور شريعتي أثناء أدائه لفريضة الحج عام ١٣٨٩هـ ويبدو إلى اليسار الشهيد مطهري

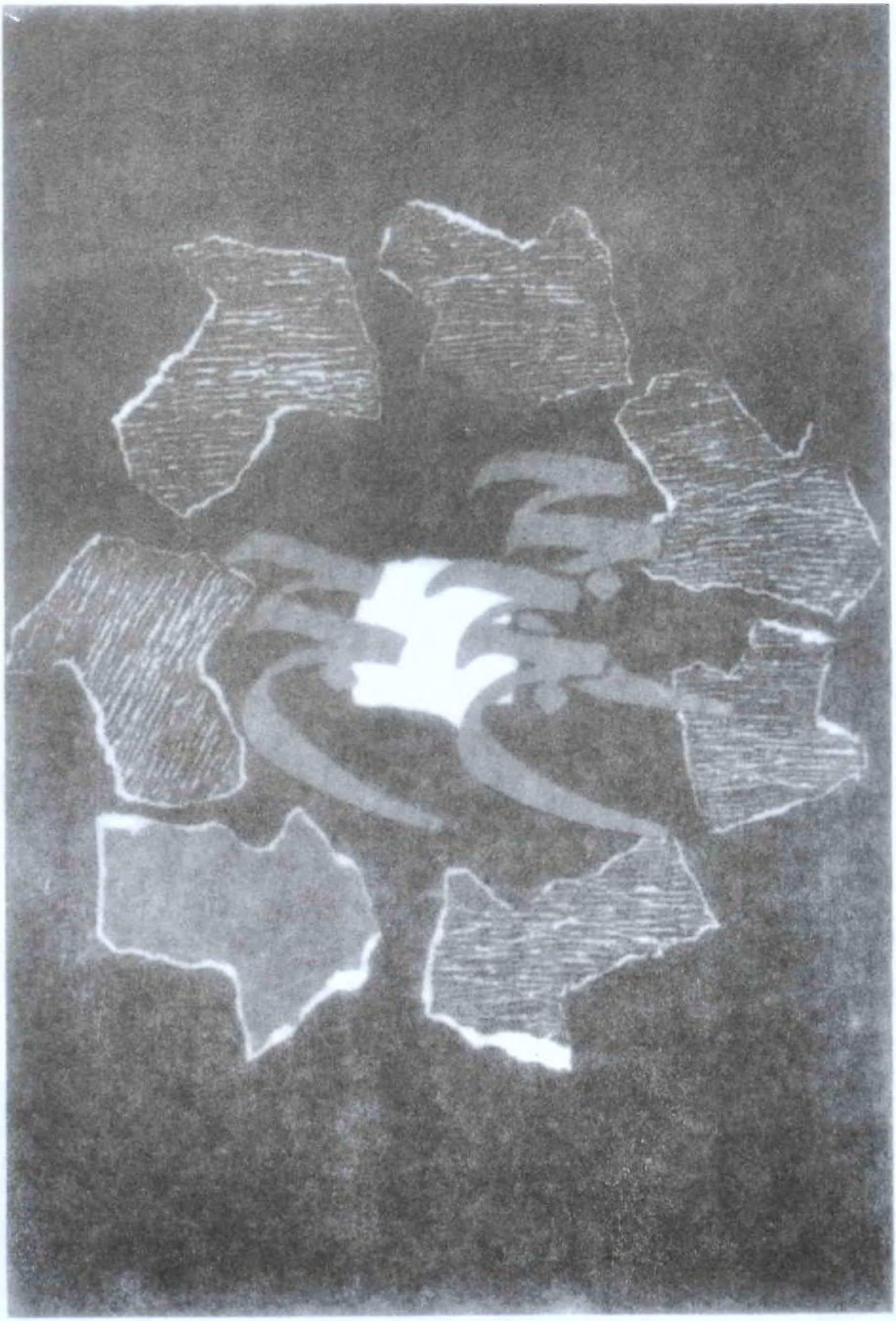

رسم الغلاف كما اقترحه الدكتور الشهيد :

**الكل يطوف في الإتجاه الخطأ، والحسين وحده يغادر الطواف لتلبية دعوة الشهادة**

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

حسینیہ ارشاد

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ...

تحلیلی از مناسک

# حج

تحلیل لما سلک

الحبر

تاریخ ـ مهرماه ۱۳۵۰

چاپ اوّل

صفحهٔ تجدید نظر شدهٔ عنوان کتاب

الصفحة المعدلة لعنوان الكتاب

الطبعة الأولى ۱۹۷۱م

**الطبعة الأولى من الكتاب باللغة الفارسية ـ ۱۹۷۱م**

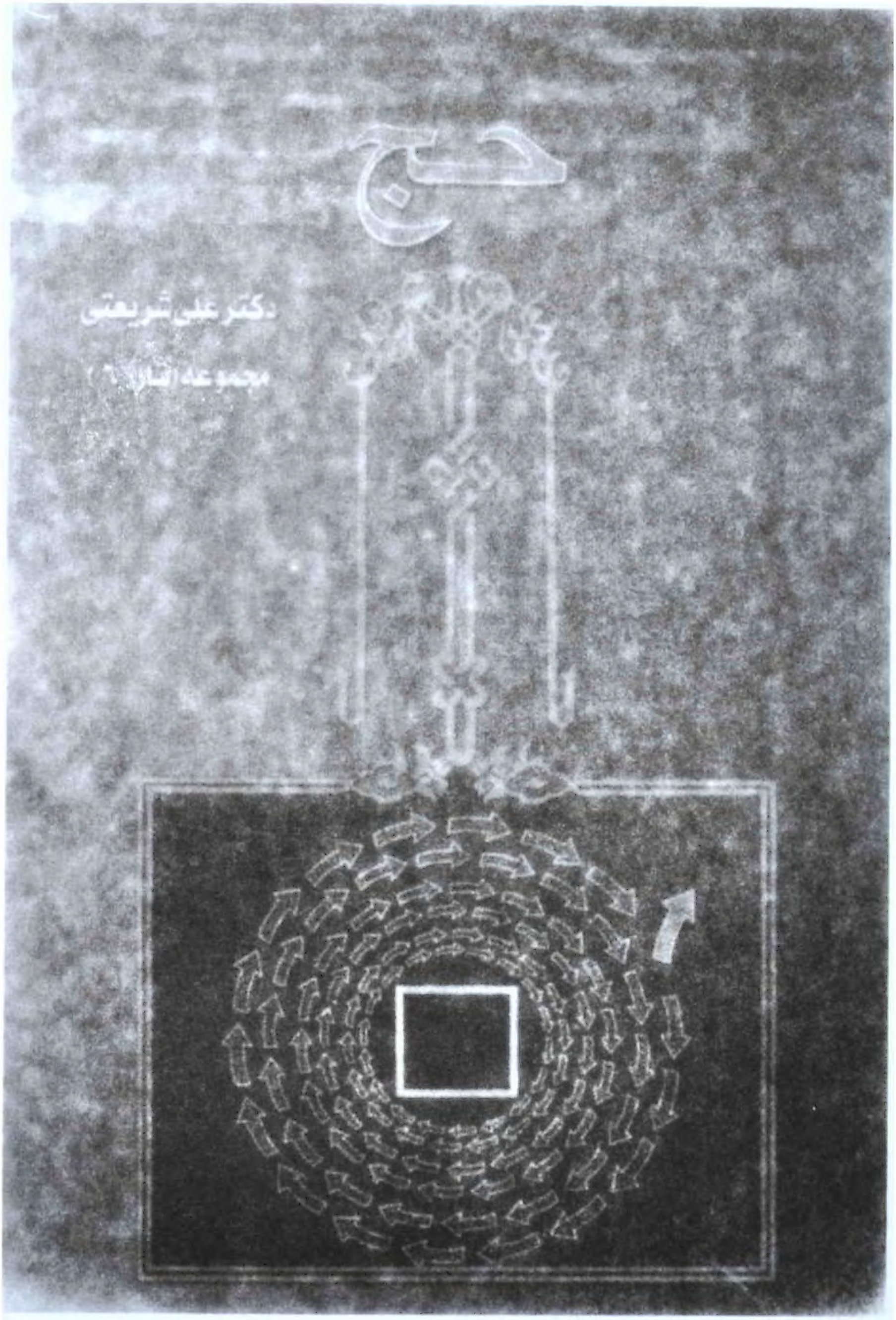


آخر إصدار للكتاب باللغة الفارسية

الطبعة الأولى من ملخّص الكتاب

الذي طبعته وزارة الإرشاد في إيران عام ١٩٨٠م ووزعته على حجاج بيت الله الحرام

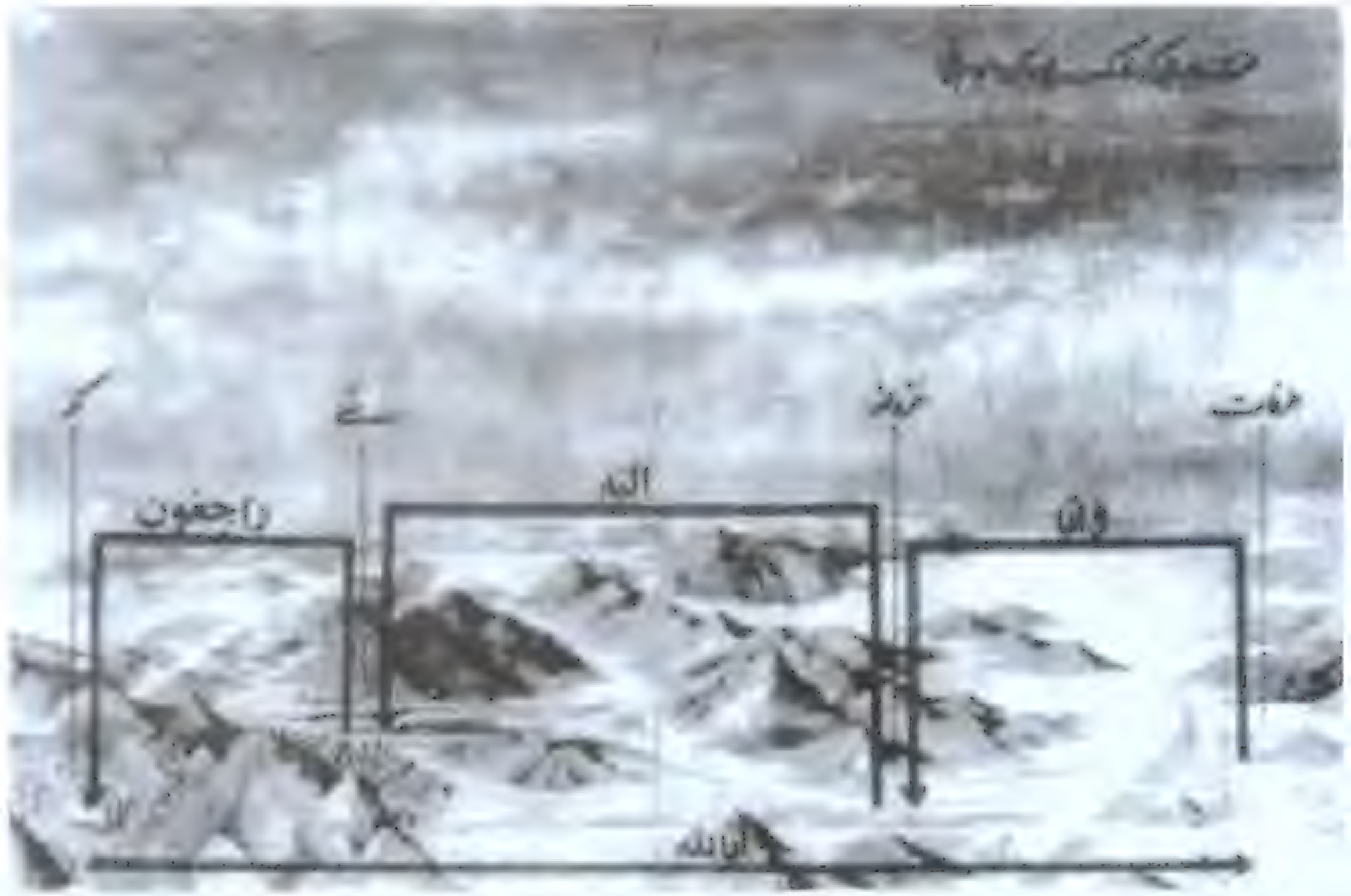


إحدى الرسومات التوضيحية

مأخوذة من الكتاب الذي نشرته وزارة الإرشاد الإسلامي عام ١٩٨٠م

باید با او سعی نکردم . آخر باهم [illegible] بودیم که کجا . آخر هیچ کجا . ای با . باهم . ملک الموت همان سال ، اورا از ما گرفت و من تنها رفتم . اما هرجا [illegible] اورا در کنار خودم یافتم ، که همه تماشا یک [illegible] با - سلام به کلام - باهم میرفتیم . اما ، نمیدانم چرا ، در سعی همیشه "بعد" . ظهری تا نیمه شب و عصری زنده و آرام ، صدای پیش را می شنیدم که پیاده میدوید و آشفته ، و هرم نفس نفس زدن اش که چه تبدار بود و تشنه و عاشق . تنها خدا به این سیل خودش [illegible] حیرت و عطش خلقی که برایم

له ای سر به آن سو میدوید میرسیدم اما ، اورا [illegible] میدیدم ، گاه [illegible] پا به پا میدید ، با به پیش میدویدم ، گاه پیدایم که چون مجسمه ای از طلبدار صفا [illegible] کنده تراشیده [illegible] با سیل همه فرد شتابنده و پیش میتابید و گاه ، در قیام احساس میکردم ، هروله میکند و سعی میکنید که می بیند . [illegible] میشنیدم و میدیدم که سرش را آن سوی سیمای میکوبد و میکوبد تا ... بترکد ، که چون حلاج از آن دار آن لبسته آمد بود و آن همه انبیاء را در آن بهت الفت به خنده کشد و نگاه دارد . او که سر را به دولت میگرفت و به بیان خلق میتابید که بزنید ، بزنید که گفت بر من حلالی شده است ! چرا در سعی ای همه بود ، و هزار همه جا ! شاید از آن روی که در حج هویتی نیز ، جنبی بود . در ای سفرنامه پرکه همه شعارش ، بهت و همه چشم نیز جنبش کار میکنند ، تنها در سعی بهت سر میشود و میرود و دلش را خبر میکند و روح حج [illegible] در فطرتش حلول میکند و [illegible] غیب بنیادش میکند و "لا اله" ! شاید از آن روی که "سعی" شبیه "عمر" بود و سعی" اندکی شکر ، تشنه و آواره و [illegible] بیقراره در تلاش یافتن "آب" ، برای اسماعیل ای تشنه دهان کویر" ! و ←

---

سعی باید تسلیم شود ، شاید باید سروته شود . [illegible] حلال در این کار میرود .

---

← شاید ، شاید [illegible] برای دلیل که او ، راه رفتنش مثل سیمای بود ، چند [illegible] [illegible] خودرا به او رسانده بود ، باید همیشه میدید ، آن لحظه را غفلت میکرد ، لحظه را به قضا یا چپه میداد و یا به خلوت چشم بسته اش در محتب [illegible] سعی را داد ، به شتاب عرعرین میگرفت . امت او راه نیرفت ، قدم نیزد ، هروله میکرد ! سکوی [illegible] تشنه ، خروشان جنجر کربت که هجرا ، لحرام بتن [illegible] آمده میدان به تاخت [illegible] « مروت » میکوشد و میدود و در این کویر . آب میطلبد : « ای ، زنده کردن وی بود . و این بود که روح ، تنها به سعی که [illegible] « خسی در نبات » شر به سعی که میرسد ، کسی در سیاه میدود و [illegible] چشم دل » باز میکند و آنجا نادیدنی است [illegible] می بیند و حکایت میکند :

نماذج من إضافات وتعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الأولى

ای که در " مقام ابراهیم " ایستاده ای و "خاتمیّت وحی " ، بارسنگین
" رسالت" را بردوش تو نهاده است ،
ای انسان آگاه ! جانشین خدا ، وارث پیامبران ! ای‌که بایـــد
" رسول " را نمونهٔ خود گیری تاخلق تورا نمونه ٔ خویش گیرند ،
ای مسئول بنای " امت" ، پیرو مذهبِ " کتاب" ، " ترانو"و ـ
" آمن" !
ای" قائم به قسط " در زمین ، ای خصم ستمگر ، یار مظلوم، ای
مجاهد مسلمان!
دعوت " مستضعفان زمین" وفریاد
های آگاه جهان مارا بشنو" که چگونه ازشر" وسواس خنّاس"می نالند:
تاین بی ، تمدن بشری رادرتهدید " دشمنان داخلی "می بینند :
هجوم دیوانه وار" مصرف و مصرف ومصرف " !
مارکوزه اعلام خطر کرده است که انسان " یك بعدی "شده اســت ،
همچون ابزار .
ایش‌فروم دیوثن وار ، "باچراغی خاموش" ، گرد این شهرمی گـــردد
و " انسان به خود " را کامو فریاد برآورده است که در شهـــر
" اران " طاعون " آمده است ، ودر" معبد" این ، "اطفـــال
معصوم ، بی‌آنکه بدانند چرا ، از بیماری مرموز وهولناکی "و ـ
ژان‌امبزوله از "شاهزاده ای مسلح " سخن می‌گوید که " سراپاغرقه درسلاح
وطلا است ، اماازدرد جانکاه وناشناخته ای رنج می‌برد که درمانی ندارد" !

نماذج من إضافات وتعليقات الدكتور شريعتي على الطبعة الأولى

# لمحات من حياة
# الدكتور علي شريعتي

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

«قرآن كريم»

«في مغبة الفرار إلى التاريخ، خوفاً من انزواء الحال، التقيت أخي (عين القضاة) الذي خفت نوره في الثالثة والثلاثين من عمره، مع بدء تفتّحه، لارتكابه جريمة ـ الوعي والشعور وضراوة الفكر ـ إذ كانت الذات والشعور والتأملات، أيام الجهل المطبق، جنحة خاصة إذا كان موقعها وسط جمهرة المستضعفين وزبائن سوق الباحثين عن ارتقاء الروح وعزة النفس وثبات القلب، أو وسط أرض الغدير، فعلى حد تعبير بوذا: «من وطأت قدمه (جزرة الغدير) ارتكب جريمة لن تغتفر».

علي شريعتي

من مقدّمة كتاب (كوير)

أجل، كان الوعي والاحساس المرهف وجرأة الفكر وتعالي الروح وشجاعة القلب، من السمات الإنسانية النبيلة التي اشترك بها شريعتي مع (عين القضاة). ولما كان قد استلهم أفكاره الراسخة فأنه سيلقى بلا شك المصير نفسه، الذي يُرسم لمن ينهج هذا النهج، ليواجه في عنفوان شبابه الموت الزؤام والمباغت.. ولا داع للعجب، لأن من يتمتع بمثل هذه الرؤية يمكنه أن يتنبأ بكل شيء، ولا يخشىٰ أن يبوح ما في مكنونات قلبه. ولكنه كان يعلم بأنه يعيش في المجتمع القائم على الظلم والتحقير، في عصر الجهل ووادي الأغفال ـ ومن الأفضل أن نقول في عصر يغض النظر فيه عن الحقيقة ـ ولا يمكن للوعي والاحساس العميق أن يرافق جرأة التفكير وبسالة القلب، بل علىٰ العكس فإنّ مقاييس بروز المفكرين أضحت تنحصر بالمال والجاه والآمال العسجدية لتولي المناصب، وعلى هذه الشاكلة صار المفكر بحد ذاته أداة علّة الظلم والتحقير الذي لحق بالوعي.

انه كان يسخر ممن عدوا أنفسهم في عداد المفكرين الذين لم يتجرأوا أن يشتركوا حتىٰ في الفساد، وظلوا في حيرة من أمرهم يحترزون أن يعملوا شيئاً خشية الآ يروا وجه الهزيمة.

كان ينظر إلى مسألة (اختيار الطريق) بأنها ليست الخطوة الأولىٰ فحسب، بل معنىٰ الحياة برمته، معتبراً التريث والشك والتردد على أنها من نتائج العبودية الفكرية، وهو ما يسميه بـ(المفكرين المتشبهين والمقلدين). وفي مجمل حياته القصيرة والزاخرة بالتجارب المثمرة، ناضل بكل ما امتلك من حول وقوة،

ضد أمثال أُولئك الأعداء المعروفين، ومن لحق بركاب الفكر في آخر الأوان بخطاهم الحثيثة ومواقفهم المتحفظة.

كان في نفس الوقت الذي يحارب فيه السذاجة في التفكير، وتقبل الوقائع والأحداث كبديل للأساس والأهداف المرسومة، كان يحارب اللاجدوائية واللامبالاة، والحياة التي تخلو من هدف، والفساد والابتذال والفراغ الفكري، وكبت دوافع المقاومة لدىٰ شرائح المجتمع المختلفة، وحتىٰ لدىٰ المناهضين لهذه الآفات والوعكات الاجتماعية الذين يرون أنفسهم حراساً لأركان مجتمعهم الصالح في حين كانت حالتهم أشبه إلى النوم منه إلىٰ اليقظة، فوصلوا إلى حد من اللامبالاة بحيث أصبحوا غافلين عن رؤية طريق الصواب، التي يستلزم فيها الإيمان والعزم الثابت والفكر الديناميكي والوعي المتيقظ لضمان عدم انحرافها، فحدا به أن يشرع بإعلان محاربته ورفضه الدائم للقيم الفاسدة التي تسللت لمجتمعنا للأسف، وكان يؤمن بأن جذور المجتمع التي جفت يمكن ارواؤها مرة أخرىٰ باتباع نهج واحد، شرط أن نغض النظر عن كل شيء، حتىٰ الحياة، وهو أن نسلك درب الشهادة:

**«لا يمكننا أن نمضي في هذا الصمت ونتحمله، كما لا يمكننا أن نقول شيئاً، ولكننا سوف نظل صامتين. إني تغمرني أحاسيس من يحتضر ويفارق الحياة وهو على يقين بأن ثمة راحة وطمأنينة ونجاة، بعد عذاب الحياة المضني الذي لا يختلف على طول العمر المديد عن (الاحتضار الذي يؤلمه في معاناته لسكرات الموت)... إنه لشهيد! ألا ترىٰ كيف يرحل بطمأنينة وراحة بال؟**

لقد هجر أولئك حياتهم اليومية، وظلّت ارواحهم خالدة، فالموت فاجعة أليمة، وهو شؤم الزوال والضلالة في اللاوجود، إذ أن نغمات الهجرة عن الذات تبدأ من خلال الموت. يا لهم من عظماء أولئك الرجال الذين استمعوا لهذا الأمر من الله سبحانه وتعالى فأتّبعوه».

(عن كتاب كوبر)

إن من تعرف علىٰ الدكتور علي شريعتي من خلال مؤلفاته، يدرك جيداً بأن ليست مؤلفاته وأفكاره البنّاءة وحدها مدعاة للوعي، بل طريقة حياته تعد أيضاً انعكاساً لاستنتاج صحيح وعميق حول كنه العالم، ذلك الاستنتاج الناشيء من إيمانه الراسخ.

وعليه عمدنا هنا أن نعرض وصفاً لحياته المليئة بالعمل والنشاط والإيمان والعشق والمسؤولية، أي وصف حياة إنسان واعٍ ومضحٍ، مفعمة بنكران الذات، ونعتذر منه ومن زملائه فيما لوَ ظهرت نقيصة في هذا العرض.

## وصف لحياته

في الواقع، لم تكن حياته سوىٰ كيف ولماذا ولأجل من؟ . . . وعليه فإنه لم ينشغل ليعط معنىٰ للحياة وشكلاً خاصاً لها فحسب، بل كان يشعر بالعبء الثقيل للأمانة الصالحة التي ورثها عن آبائه وأجداده. كان يأمل أن يصل بها إلى مقصدها بالسرعة الممكنة كما ورد في نهاية رسالته التي قال فيها بأنه لم يكن ليفرّط حتى بلحظة واحدة من حياته في اللامبالاة واللاجدوائية:

«بلطف وتوفيق من الله تعالى، اللذين يجعلاني خجلاً أمام مظاهر المحبة المشفوعة بالمعجزات مما تألم قلبي فكانت رحمته قد سببت لي الانفجار بعد الهيجان، ودون أن أكون أهلاً سلكت طريقاً لم أفرط فيها حتىٰ بلحظة واحدة من عمري لأرتكب حراماً، فوفقني الله لكي أعالج ما أحسست به من ضعف، ولا تعلوها لذة عندما يمضي العمر القصير بهذا الشكل».

(من كتاب مع معارفنا المخاطبين)

لم يحمل على أكتافه عبء أمانة اجداده والصالحين من بني البشر فحسب، بل حمل عبء المسؤولية الكبرىٰ في البحث وتقصّي الحقائق والعدالة، التي فرضت علىٰ كاهل المستضعفين والمظلومين علىٰ مر العصور، كان يشعر بها كأنها الأمانة ذاتها التي وضعت على كاهل (الحسين وارث آدم) ونفسها التي حملتها السيدة زينب عليها السلام في قصر يزيد، الأمانة بعينها التي يحس بثقلها عباد الله في الأرض:

**«مَن هذا؟ شبح الانزواء والغربة والهزيمة وخيبة الأمل والآلام، في صحراء مغطاة بالدم، ومن بحر الشهادة الأحمر رفع هامته وظل واقفاً وأطبق الصمت».**

(من كتاب الحسين وارث آدم)

كان يؤمن بأن الوراثة هي أصل فلسفي وعقائدي في الإسلام، وبين علىٰ أساس ذلك الوقائع والحوادث الماضية، الحاضر والمستقبل، في مختلف الظروف والأحوال، بمثابة مسيرة

هادفة. فيحصل أن تجد هذه الحوادث والوقائع الهادفة تتفاعل مع بعضها لتؤول إلى ترابط موضوعي فيما بينها، وقد يجد تفاضلاً أو يؤثر بعضها على البعض الآخر، ويعد كل منها حلقة من سلسلة طويلة تمتد منذ بدء ظهور المجتمع البشري وظهور سيدنا آدم عليه السلام إلىٰ آخر حلقة من نظام التضاد والصراع في آخر الزمان. إن هذا الإستمرار المنطقي والتطور الحتمي يسمىٰ بالتاريخ.

ولعل هذا العبء الثقيل لأمانة التاريخ، الذي لم يكن لينساه حتى ولو للحظة، فقد ورثه من أجداده والصالحين الأقربين مما أنار له كل حياته التي بدأها في الصحراء.

وعندما وافاه الأجل، كانت العقيدة التاريخية والإجتماعية تشكل منهاجاً للإرشاد الفكري لجيل الشباب، واكتشافه «الطريق الوسط» التي تلائم منطلقات عصرنا، قد عمت أرجاء شتىٰ من البسيطة. وقد خلّف وراءه الطريق الحتمي لصالح المظلومين، بعد أن تبوأ لنفسه موقع شهداء التاريخ وشهوده.

وليست ثمة صدفة أن يكون (علي شريعتي) كمن سبقه من العلماء والمؤرخين والباحثين الكبار في أصول الدين، منتمياً إلىٰ عائلة قروية، إذ كان يفتخر بالصالحين واجداده الذين كانوا في عداد علماء الدين الكبار في زمانهم، وكان يفتخر بأنه ينتمي إلىٰ الصحراء بعيداً عن الضجيج والتشتت، اللذين أصبحا من الصفات الملازمة للمدن، فكتب حول هذا الموضوع يقول:

**«منذ حوالي الثمانين عاماً، قدم إلىٰ هذه القرية رجل، كان**

فيلسوفاً وفقيهاً قد نهل العلم من مدرسة المرحوم (الحاج هادي الأسرار) آخر فلاسفة سلسلة الحكماء الكبار في الإسلام، وكان تقياً ورعاً متميز الشخصية، اختار أن يقضي أواخر أيام عمره في اطراف الصحراء وحيداً فيكون بعدها نسياً منسياً.

وكما قال المرحوم (الحكيم السبزواري الكبير) لم يكن في محاضرات (الأسرار) تلميذاً كباقي زملائه التلاميذ، إذ كان قد درس الحكمة قبل قدومه إلى قريتنا عند أحد اخواله وهو (العلامة بهمن آبادي) الذي كان استاذاً في المنطق والحكمة والفقه. كان يتداول مع (الحكيم) اموراً في اسرار الحكمة، وحسب رأي بعض أصحاب الشأن كان يرجح عليه. وبدلاً من أن ينزوي في قريته (بهمن آباد) الواقعة على مقربة من قرية (مزينان) ذاع صيته في مدارس وحوزات طهران، مشهد، أصفهان، بخارىٰ والنجف. وانتشرت اصداء نبوغه وحكمته في طهران لدى ملك القاجار، فحدا به أن يدعوه ليزور العاصمة، فحصل أن انشغل في مدرسة (سبه سالار) في تدريس الفلسفة.

ولكن كان ما يراوده من حب العزلة والوحدة وولعه بالخلوة بنفسه مع الله، وهو أمر كان يدور في دماء أجدادنا، ادّىٰ لأن يقفل إلى (بهمن آباد) راجعاً، دون أن يأبه بما ينتظره من منزلة اجتماعية ومكانة دينية ومقام علمي مرموق، يوصله لزعامة الخلق والمرجعية الدينية، ومن ثم شهرة ذائعة الصيت».

(عن كتاب كوير)

تعلّم شريعتي أشياء كثيرة من حياة أجداده الطاهرين، سيما فلسفة البقاء على إنسانية الإنسان في زمن اتسم بالفسق والفساد، يصعب فيه البقاء عليها، في زمن نحن في أمسّ الحاجة فيه يوماً بعد آخر إلى الجهاد إلا أننا لم نجد إليه سبيلاً.

**«كان الحكيم الآخوند جد والدي، وكثيراً ما كنت استمتع فيما يحكىٰ لي عنه. كنت أجد في هذه الحكايات المنبع الطبيعي للكثير من جذور احساساتي الكامنة في أعماق نفسي...**

**منذ ثمانين سنة، خمسين سنة، ومن قبل مجيىء إلى هذا العالم كنت أحس وجودي في وجوده... وها أنا الآن في غاية الامتنان لما كان عليه وما حققه».**

(من كتاب كوير)

كان عم والده، واحداً من أبرز التلاميذ لدىٰ المفكر المعروف (أديب نيشابوري) إلاّ أنه بعد أن درس الفقه والفلسفة والآداب، اتّبع طريق أجداده ورجع إلىٰ (مزينان). وكان شريعتي يرث تركة أجداده العلمية والإنسانية عن عمه هذا بالذات. كان يرىٰ روحه الخالدة في نفسه، ويرىٰ في تلك الروح الضوء الوهاج الذي أضاء له طريق حياته.

وقبل كل ذلك، كان والده استاذه المعنوي والروحي، بحيث أصبح الإبن النور المنعكس من جوهرة الأب:

**«أما والدي فقد خالف سنن حياتنا، حيث بعد انتهاء درسه لم يعد من المدينة، قاسىٰ الويلات ولم يعد، وظلّ في المدينة إلى أن**

حدا به أن يقرر مقارعة سكون مستنقع المدينة، فنذر عمره كله للعلم والمحبة والجهاد. . . وبناءً على ذلك فقد خرج ببدعة ـ حسب سنن الأولين عندنا ـ فاختار أن يبقىٰ في المدينة، وأنا ربيب هذا القرار، وورثت كل الضياع والعقار التي تترك في مملكة الفقر. . لأصبح حاملاً لتلك الأمانة الغالية».

(عن كتاب كوير)

فالسيد محمد تقي شريعتي استاذ ومجاهد كبير، مؤسس (مركز نشر الحقائق الإسلامية) في مشهد، وواحد من بناة الحركة الفكرية الإسلامية في إيران. وقدّم علىٰ مدىٰ أربعين عاماً خدمات جليلة في الدعوة والإرشاد المنطقي والعلمي للدين بشكل يواكب التقدم العصري. وكان في مقدمة صفوف الذين دأبوا لتوعية الشباب الخريجين الجدد، للعدول عن المفاهيم الغربية الخاوية والمادية الجوفاء، والتمسك بالإسلام الذي يضمن نور الحياة.

يقول على شريعتي بهذا الصدد:

«لعل فكرة تعيين القرآن والرجوع إليه كمحور أصلي للبلاغ والبحوث الإسلامية والشيعية، وإيجاد مذهب خاص في تفسير القرآن، في السنوات الأخيرة، مرهونة إليه إلى حد كبير».

إنَّ التأكيد علىٰ تأثير الأب (محمد تقي) على الدكتور شريعتي يأتي من هنا، وهذا يساعدنا للتعرّف على الأبعاد المختلفة لحياة شريعتي. وكل من تعرف علىٰ ذلك الرجل النجيب والعالم البارز يتفق مع هذا الرأي.

ويؤكد هذا الأمر حقيقة الإنسان الذكي الصادق عندما يعتمد علىٰ معلّم ماهر فأنه بلا شك سوف يشق دربه ويجتاز الموانع والحواجز الموضوعة أمامه ويسبق عصره، وبدلاً من التأثر بالقضايا يصبح بذاته منبعاً للتأثير على الآخرين بشكل فاعل ودون الخوض في الإنفعالات.

إن من عرف شريعتي ـ الأب ـ عن كثب، واطلع علىٰ أبعاد حياته المختلفة الدينية منها والعلمية، الإجتماعية، السياسية والإنسانية، يدرك عمق التضحية والمقدرة والصمود والمعرفة عنده. وأيضاً من خلال كتبه ومقالاته ومحاضراته الفلسفية ومن ضمنها: (الخلافة والولاية في القرآن والسنة)، (الوحي والنبوة)، (علي، شاهد الرسالة)، (موعود الأمم)، (فائدة واقتضاء الدين)، (الإقتصاد الإسلامي)، والأهم من ذلك (التفسير الجديد).

ونتيجة لذلك يعرف جيداً مدىٰ نضاله الشجاع ضد كل العناصر التي تحول دون تفجير الطاقات الخلاّقة لا بل كبحها في كل مكان، وحتىٰ في الجامعات والأوساط الدينية، كما يدرك الدور البارز في تحليل طرق الإجابة على التساؤلات التي تراود أذهان الآخرين حول الإسلام، واختيار طريق الصواب في خضم القضايا والتناقضات الموجودة في عصرنا، العصر الذي قلّما تجد فيه أباً وإبناً علىٰ ذلك النسق:

**«كان أبي أول من وضع لبنات الآفاق القويمة لروحي! إنه علمني منذ البداية فن التفكير وفن الإنسانية (أي كيف أكون إنساناً)**

طعم الحرية، الشرف، العفة، عفة الروح، الإباء، ثبات الإيمان، استقلالية القلب وعدم التردد. كما علمني كيف آنس بقراءة كتبه، لقد كبرت، نشأت وترعرعت منذ السنين الأولىٰ للطفولة والصبا بين كتب والدي واصدقائه واكتسبت تربيتي بهذا النحو.

لهذا عندما كنت انتقل من صف إلى صف خلال سنيّ دراستي كنت متقدماً على زملائي الطلبة بقدر (مائة درس) وعن أغلب معلّميَّ بقدر (تسعة وتسعين درساً) كان قد أهدىٰ إليَّ آراءه ونظراته في الطفولة والصبا، تلك الآراء التي يمكن أن يتعظ بها الكبار في سنيّ حياتهم المتقدمة بعد خوضهم أنواع شتى من الصراعات والمساعي المتواصلة خلال تلك السنوات الطوال، وتعد مكتبة والدي من أعزّ الخواطر التي تتملكني، ولي مع كل كتاب من كتبه حكاية، حتى أغلفة الكتب قد تركت أثراً في قلبي، وان غرفته لمقدسة، تلك التي تضم مجموعة من الماضي البعيد والوديع والصالح، فيخفق لها قلبي حباً بها».

(عن كتاب كوير)

أما النبوغ والذكاء، فانهما يزيلان كل قيود المحيط وأغلاله، ويجعلان المرء يسبق عصره. فلو أراد الإنسان أن يستخدم قدرته للتأثير على الآخرين فيستلزمه أن يحرّك الأسس الموجودة لتقفز هذه الأسس إلى الأمام وبأخلاقية تامة، ويحرر نفسه من وثاق المحيط فلا يوحي إلىٰ نفسه بأنه مكبل بقيوده.

لقد فك الدكتور شريعتي وثاق المحيط وتعقيدات التقاليد

وقرّر بعزم راسخ وإرادة ثابتة ألاَّ يتبع هذه القوالب الجامدة، بل يسخرها خدمة لأهدافه، فأفلح في تعامله مع الإرادة وشواخص الطبيعة. وفي الوقت الذي كان منهمكاً بالبحث والدراسة، شرع في مهمة التعليم، وشمل عمله نطاقاً واسعاً وآفاقاً متعددة من الوعي والمعرفة، مما جعل اقرانه يعرّفونه بأنه قد سبقهم ومحيطه والزمن الذي عاش فيه.

فالذكاء، المحيط الملائم، والأهم منهما العقيدة الراسخة الحقة بالإسلام وشعوره العميق بتعلقه بهذه الأمور، إضافة إلى تحليه بشخصية صادقة ومثقفة في طبيعة تفكيره وسلوكه، مكنته من استخدام الإمكانيات المتاحة على أحسن وجه للوصول إلىٰ الأهداف السامية التي يروم تحقيقها، فوصف المحيط العام لتعليمه كما يلي:

**«كم من النعم منَّها الله تعالىٰ عليّ، وللأسف أنا أنكرها ـ دون جدوىٰ ـ فلم يكن أحد اجتماعياً بقدر ما كنت عليه، لقد جعلتني الأرواح غير العادية العظيمة والجميلة البنّاءة والمفعمة بالإيثار، أن أجلس إلى جانبها وأن أوقفها لأكلمها أو أتحدث إليها. فحصل أن أنسابت تلك الأرواح في جسدي وتواجدت فيه بشكل فاعل ومؤثر، وأنا أشعر في الوقت الحاضر بأنني أعيش معها، وأنها حية تعيش معي»**.

(عن كتاب كوير)

فإِضافة إلى كون الأرواح العظيمة ـ والتي تمثلت بمعلميه وأساتذته والآخرين الذين علموه الحقائق المختلفة عن الجهاد في

الإسلام ـ قد ألهمته أشياء كثيرة، وكان بدوره النبع الفياض التواق للتعرّف على الحقيقة، فسلك طريق التأمل والإلتزام والمسؤولية، وسعىٰ للوصول إلى الكمال؛ فتخلد ذكره عند الجميع، واحتفظ بعلاقته وحنينه إلى منزله الأول وإلى عائلته وخلانه، ولم ينس الصحراء التي عاش فيها، وعندما كان يذكر اسم (مزينان) قريته، يتبسّم، وتدل كل سحنات وجهه عن الرضىٰ وعن لذة الذكرىٰ.

كان في صباه وبدء شبابه، كالكثير من الناس، طالباً اعتيادياً، ويؤدي امتحاناته كالآخرين ويرتقي صفاً بعد صف في كل عام بشكل اعتيادي منذ أن بدأ الدراسة الإبتدائية ثم الثانوية. وكان أثناء ذلك يتعلم اللغة العربية والعلوم الدينية. وبعد إتمامه للدراسة الثانوية دخل معهد اعداد المعلمين وذلك لشغفه بحرفة التعليم، حيث كثيراً ما يوجد من لم يتسن له أن يدخل الجامعة على الرغم من كونه مؤسسة تعليمية بحد ذاته، وقد بدأ خلال تلك الفترة كتابة مؤلفات عديدة مثل: (المذهب الوسيط) في فلسفة التاريخ، وأخذ بألقاء الخطب في (مركز نشر الحقائق الإسلامية) في مدينة مشهد.

لم يكن يحلم بالاستمرار في الدراسة التقليدية والدراسات العليا في الخارج بقدر ما كان ولوعاً بالتأمل والإلتزام والتعلّم، فصار ولعه مؤثراً في تكوين شخصيته وتوجيهها الوجهة الفكرية الحسنة، فأكسبه إيماناً عميقاً وقاطعاً بالدين الإسلامي، وتعلقاً دائماً بمحيطه ومنزله الأول الذي رأى فيه منبع نبوغه.

كان لمركز نشر الحقائق الإسلامية في مشهد دوراً زاخراً

بالنشاط على طول السنوات الثلاثين، ومؤثراً في حياة الملتزمين والمثقفين لتلك المدينة. وكان له دور كبير جداً في بلورة أفكار الدكتور شريعتي، كما كان لشريعتي دور كبير بالمقابل في توسيع نشاطات ذلك المركز عن طريق القاء المحاضرات والخطب، والرد علىٰ الأسئلة وترأس الجلسات التي تعقد في مناسبات عديدة في المركز المذكور.

ومنذ ذلك الحين، عرج الدكتور شريعتي إلى الكتابة والخطابة بصفتهما الوسيلة لضمان التحوّل الفكري وتعميق الإيمان، مما حدا به أن يتبع هذه الطريقة دوماً باستخدام قلمه ولسانه الفصيح.

كان لإتقانه اللغة العربية والفرنسية قبل دخوله الجامعة أثراً بالغاً، حيث مكنّاه من ترجمة بعض الكتب من هاتين اللغتين إلى اللغة الفارسية، ومن هذه الكتب: (أبي ذر الغفاري) من اللغة العربية و(الدعاء) من اللغة الفرنسية، إضافة إلىٰ المقدمات القيمة والبليغة التي وضعها لترجمتيه تلك مما يبين صراحة فكره الإسلامي وصدقه.

كان يرىٰ في الإسلام بين المذاهب الفلسفية المختلفة وبين الإشتراكية والرأسمالية، مذهباً وسطاً، فضمن تعامله مع الجوانب الإيجابية والمميزات الخاصة لبعض المذاهب الفكرية الأخرىٰ، كان يعرج إلى تفنيد بعض ما ورد في تلك المذاهب.

كان يبعث الأمل في الحركات العقائدية المناهضة للإمبريالية في رقعة واسعة من العالم الإسلامي من شمال أفريقيا إلىٰ

أندونيسيا، فكان يحس الآلام التي يعيشها المسلمون هناك، وكانت ترجمته لكتاب (أبي ذر) و(الدعاء) ـ على الرغم من صغر حجمهما ـ وهي من نتاجات عصر شبابه، ما جعله يتجه للمراجع الأصيلة في الإسلام ليستنبط منها الجديد من الحكم والمواعظ حول سيرة النبي الأكرمﷺ والوجوه الدينية الأخرى على مرّ التاريخ الإسلامي. وقد ترك الكتابان المذكوران أثراً كبيراً على أفكار شريعتي الشاب.

وعندما تأسست كلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٩٥٦م في جامعة مشهد، تمكن شريعتي من الإنضمام إليها، والإستمرار بتحصيل العلم إلىٰ جانب عمله التعليمي. وكثيراً ما كان يبحث في القضايا ويناقش اساتذته في مجالات الفكر المتعددة، فاكتسب تجربة شقَّ بواسطتها طريقه في النهج الفكري وتابعه أكثر فأكثر. وحتى في الدروس التي كان يحضرها كتلميذ لم يكن يقتنع أن يمضي الدرس دون اشتراكه في نقاشات موضوعية تهديه والآخرين سواء السبيل.

لقد أتاحت له هذه الأمور آفاقاً في البحث وتقصّي الحقائق وشغفاً متزايداً لتتبع تاريخ الأديان وتاريخ الإسلام وفلسفة التاريخ، وطرح الكثير فيما يخص فلسفة التاريخ لدى (توينبي) وله انتقادات على موارد عديدة منها.

لقد أبدىٰ شريعتي دفاعاً مستميتاً عن الحقيقة والعدالة، وأعار أهمية خاصة للوقائع والأحداث الدينية والإجتماعية والسياسية المؤثرة في مصير الناس، معبراً بذلك عن استقلاله الفكري والعقائدي.

لم يستطع أن يغض النظر أو أن يختار الصمت القاتل مقابل الاجراءات التعسفية التي اتخذها الحكام الجائرون في إيران، وخاصة بعد المؤامرة التي أطاحت بمصدق عام ١٩٥٣م، فقام بمحاربتها والنضال ضدها، على الصعيدين السياسي والإجتماعي، إذ سلك طريق توعية الجماهير وتبيين الحق عن الباطل وتعبئتها بهذه المواجهة، وذلك عبر خطبه وكتاباته ونشاطاته الأخرىٰ التي لاحقه بسببها أزلام النظام الشاهنشاهي.

كان يحارب على جبهتين في آن واحد، الأولى ضد المتقوقعين والتقليديين من المسلمين الذين أنزووا في زاوية من زوايا المسجد، وعزلوا الإسلام عن المجتمع، وأبدوا ردود فعلهم السلبية إزاء أية حركة فكرية حرة تبرز في المجتمع، وذلك لكونهم قد أسدلوا ستاراً مظلماً على وجه الإسلام المشرق، واختاروا لأنفسهم مخبئاً خلف ذلك الستار.

أما الجبهة الثانية التي كان يحاربها شريعتي فهي التي يشكلها المثقفون الذين اغتربوا عن ذواتهم، فقلدوا من سبقوهم ممن تمسكوا بنزعة العلمية الجديدة ـ العلمانية ـ فاستبدلوا خندقهم الأصلي بذلك الموضع، وكانوا يبدون تواضعهم أمام تباهي العصر الذي ملأ فساداً وغروراً وعنجهية.

## في جامعة السوربون

لقد سنحت الفرصة لشريعتي عندما كان في جامعة السوربون ـ باريس ـ مدة خمسة أعوام، ليتخلّص من وسوسة وقلق ما كان يرواده من احتمال أفول رغبته في الاستمرار بالبحث والدراسة،

ومن ثم الاطلاع على مراجع وكتب لم تكن موجودة في إيران أو على أقل تقدير لم تكن في متناول يده. لقد استطاع أن يتعرف على المذاهب الفكرية المختلفة، الإجتماعية منها والفلسفية، وأن يتصل بروادها، ويدرس الأبحاث التي كتبها الفلاسفة والعلماء والكتاب أمثال: (هنري برغسن)، (البير كامو)، (جان بول سارتر)، (شوارتس) وعلماء الإجتماع: (غورفيج)، جان بيرك)، والمستشرقين مثل: (لويس ماسينيون).

لقد اتجه نحو الدراسات الإسلامية وعلم الإجتماع بصورة خاصة، وشرع بها بشكل رسمي ومنظم. وقد ترك النهج التحليلي والإنتقادي لعلم الإجتماع الفرنسي تأثيره عليه، ولكن وبالرغم من اتجاهه لهذا الضرب من علم الإجتماع، أصبح يواكب بحوثه بحيث جمع بين علم الإجتماع والرؤية الإجتماعية المستنبطة من فكره وعمله.

فلم يكن مقتنعاً بما جاءت به (البوزتيفية) التي تنظر إلى علم الإجتماع نظرة علم مطلق، ولم يرض بالاستنتاجات المحضة للماركسية، على أن أيّاً من هذه الطرق لم تكن لتدرك أو تحلل الحقائق في البلدان غير الصناعية أو ما يسمى بالعالم الثالث.

كان شريعتي منهمكاً دوماً في البحث عن نوع من علم الإجتماع دون الإعتماد على التحولات التي تحصل في بنيان المجتمع الرأسمالي أو النظام الشيوعي، بحيث يتمكن علم الإجتماع هذا من أن يعبر عن تحليل حقائق الحياة للأفراد والمرتبطين بالإمبريالية والتي تقبلها الأطراف الشيوعية في أوروبا الشرقية. ولكن

مع وجود هذه الحالة، دأب أولئك الأفراد مراراً لخوض نضال دائم في سبيل تحقيق اهدافهم في نيل الشرف والإستقلال.

كانت فترة إقامة شريعتي في فرنسا متزامنة مع هيجانات الثورة الجزائرية، التي اتخذت خلالها الأحزاب والتكتلات السياسية المختلفة في فرنسا، وحتىٰ المفكرين وعلماء الإجتماع، اتخذوا مواقف مختلفة، سلبية وايجابية من مصير الشعب المسلم الذي استبدته قوة رأسمالية غاشمة، ذلك الشعب المسلم الذي رزح لمدة قرن كامل تحت نير تلك القوة، فقرر أن يعمم حربه الجهادية القاهرة ومعركة الموت والحياة بمفهومها الواضح إلى داخل فرنسا. وكان موقف الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري يخلص إلىٰ الحاق الجزائر بفرنسا ومعارضتهما للثورة الجزائرية، موقفاً يدعو للتأمل، إذ أنّ فيه الكثير من الدرس والعظة.

لقد اهتم شريعتي بما يجري في الجزائر اهتماماً بالغاً، لأنه لم يجد نفسه بعيداً عن نضال الشعب المسلم هناك، بل يرىٰ نفسه شريكاً مع المصير الذي يناضلون من أجله. كانت الثورة الجزائرية الدامية يُنظر إليها من زاوية أخرىٰ، وهي اعتراف العدو قبل الصديق بكونها نموذجاً للكفاح ضد الإمبريالية، فقد دخل عشرة ملايين مسلم من القرىٰ والأرياف والجبال ليواجهوا عدواً يعد من أشرس المدافعين عن القيم الرأسمالية، جنّد قوة مؤلفة من خمسمائة ألف جندي مستخدماً تقنية عسكرية عالية، فضحىٰ الشعب المسلم بمليون شهيد مجبراً العدو على الإنسحاب والإنصياع لمطالب الشعب الجزائري المكافح.

إن القضية المهمة التي يجب أن أتطرق إليها هنا هي عدالة مطالب المسلمين، سواء كانت علىٰ صعيد العالم العربي أو ما وراءه، الذين ساندوا الحركة الجزائرية بصفتها قضيتهم. وبأمر من الجبهة الشعبية لتحرير الجزائر ترك الكثير من الطلبة المسلمين دراستهم، كان من بينهم طلبة في السنة الأخيرة من مرحلتهم الجامعية في فروع الطب والهندسة، والتحقوا بصفوف المجاهدين الجزائريين وتولوا واجبات ومسؤوليات مختلفة في التصدي للعدو وتحرير البلاد.

إن البعد الآخر للنضال هو تبلور الأفكار والنظريات الحاصلة من ذلك النضال. وان التحليلات الفلسفية، علم الإجتماع وعلم النفس كانت مطروحة على بساط بحث القضية الجزائرية لأجل فهم وتوضيح الجذور العميقة لتلك القضية.

إن هذا النشاط النظري الذي شهدته الساحة الجزائرية ـ إضافة إلى العمليات الفدائية ـ قد انعكس في مقالات عديدة وبلغات مختلفة في كل أرجاء العالم، وكانت الصحيفة الناطقة بلسان الجبهة الشعبية لتحرير الجزائر تقوم بدور فعّال في شرح أبعاد القضية الجزائرية، وان للمقالات والتحليلات التي كتبها المفكرون حول النضال التحرري الذي قام به الشعب، أصداء في كل البلدان. ولا يخفىٰ بأن كان لبعض المفكرين الفرنسيين موقف إيجابي في هذا العمل الإعلامي.

كانت لمقالات (فرانس فانون) أهمية خاصة والذي كسب من

خلالها اهتمام الآخرين. كان (فانون) هذا من أهالي مدينة (مارتينك) الواقعة في جزر (انتيل) وقد اكتسب التبعية الجزائرية، وهو من علماء النفس المعروفين. انضم إلى صفوف الثورة الجزائرية وكتب مؤلفات مهمة مثل: (معذبو الأرض) و(السنة الخامسة من الثورة الجزائرية).

لقد اكتشف (فانون) من قبل (جان بول سارتر) فعرفه للمجتمع الأوروبي. وفي الواقع أن الدكتور شريعتي كتب مقالة عنه عام ١٩٦٢م نشرتها احدى المنشورات السياسية ـ الإجتماعية للطلبة الجامعيين الإيرانيين في أوروبا، وشملت مقالته بحثاً مهماً عن (فانون) إذ عرّف من خلالها كتاب فانون (معذبو الأرض) بأنه تحليل عميق عن الحالة الإجتماعية والنفسية للثورة الجزائرية ورأى فيه هدية للمناضلين الإيرانيين. وبعد أن أوضح شريعتي بعضاً من نظريات (فانون) الذي لم يكن معروفاً لدىٰ أحد من قبل، وترجم بعض الأقسام من كتبه، استطاع بها أن يوصل إلى الحركة التحررية للشعب الإيراني اصداء فكر (فانون) في الثورة، إذ كتب عبارات تجلىَّ فيها تأثره بفانون:

**«لنذهب أيها الأصدقاء ونبحث عن ساحل آخر، ونخترق جدران الليل الظلماء، ونتسلل حثيثاً من الظلمة التي عتمت حياتنا لنخرج منها دون رجعة، وعندها يجب أن نجد سبيلاً للوصول إلى ذلك اليوم الجديد الذي سنرفع فيه رؤوسنا شامخة فخراً بالمقاومة والصلابة التي أبديناها، ذلكم يوم الوعي والفكر الجريء الدائم التحدي».**

لقد قام الدكتور شريعتي بتعريف أفكار (فانون) للملأ، فأصبح الأخير صديقاً فكرياً له، يفهم دعواته الصادرة من أعماق روحه، فأصبح معروفاً في إيران، وبعدها قام أفراد آخرون بترجمة أعماله ومؤلفاته في إيران، فاشتهر بين الإيرانيين أيضاً.

ولشريعتي دور كبير آخر في التعريف بأفكار الثوريين من القارة الأفريقية، ومنهم: (عمر اوزغان) الذي كتب (أفضل الجهاد). كما قام بتعريف عدد اخر من المفكرين والشعراء غير المسلمين، وذلك لإيمانه بأن الأفكار المتبلورة التي جاءت بها الحركات التحررية الشعبية، الإسلامية منها وغير الإسلامية، يمكن أن تكوّن حالة مرنة من الفكر الجديد يستلهم منها المسلمون الإيرانيون في نضالهم الإجتماعي والسياسي. وفي الواقع كان ينصح أصدقاءه وتلامذته لأن يقوموا بدورهم باكتساب الفائدة القصوىٰ من الحركات الصحيحة والصادقة للنضال الإسلامي.

لم يكن شريعتي في دراسته لآثار وأفكار الباحثين والكتّاب الملتزمين الأجانب في أوروبا، واتصاله الشخصي مع بعض أولئك، ليتأثر بأفكارهم السلبية (كما حصل لبعض المفكرين) بل خلص إلى أفكار جديدة، خلاّقة وأصيلة أخذ يعرضها على الناس.

لقد صبّ شريعتيٰ جهوده في دراسة علم الإجتماع وتأثيره على الحركة والظواهر الواقعية للمجتمع أكثر من علم الإجتماع الرسمي الصرف. لم تكن دراسته للحقائق والظواهر الواقعية تخلو من النقد. وخلال مدة إقامته في باريس، التي انتهت بنيله شهادة الدكتوراه في علم الإجتماع، كان منهمكاً في إقامة النشاطات

الإجتماعية التي تصوغه إنساناً واعياً ومجاهداً بارزاً، بدلاً من أن يقضي أوقاته منكبّاً علىٰ مطالعة الكتب فقط.

يمكننا أن نتبيّن مزيته عن اقرانه وزملائه الطلبة، بتشخيص ثلاثة أنواع من نشاطاته، وهي: نضاله الفكري، نضاله العلمي، ونضاله لرسم طريق متكامل لنظام تعليمي حقيقي. وكانت كل هذه النواحي الثلاث تخدم المصالح الشعبية، أو بالأحرىٰ مصالح الأمة، بدلاً من افتعال الضجيج الذي يشوب النشاط السياسي للطلبة، إذ أنه اختار أن يرسم الطريق القيّم والأمثل للشعب بما يتضمنه ذلك الطريق من مقومات ديمومته. فانصبت كتاباته ومساعيه في ذلك الطريق، وكان يدرك أكثر من غيره حركات القواعد الشعبية كمؤشر يهتدي به قبل غيره.

لقد تزامنت فترة إقامة شريعتي في باريس مع مرحلة حياتية جديدة في تحوّل الجناح التقدمي للحركة الدينية داخل إيران. ولم تمر فترة طويلة حتى هبَّ نسيم الحرية على إيران، فحدا بالسلطة الحاكمة أن تعتقل وتختطف وتلاحق رواد الحرية في البلاد، وحاكمت المعتقلين وزجتهم في السجون، وقامت بتعذيبهم بوحشية متناهية، هادفة من وراء ذلك اجهاض وتدمير الوعي الوطني والديني، وخاصة الأفراد الملتزمين من أعضاء (حركة تحرير إيران) المجموعة الوحيدة التي قدمت عقيدة وسياسة واضحة، وخططاً عملية لتنتهجها ضد السلطة الحاكمة في وثبتها يوم الخامس من حزيران عام ١٩٦٣م (١٢ محرم عام ١٣٨٣هـ) فأعطت للحركة الإسلامية في إيران بعداً جديداً ميزت فيه

المجاهدين الحقيقيين عن المحتجين الفصليين.

كان شريعتي شغوفاً بأفكار هذه الحركة ويراها نابعة من ذاته، ولهذا لم يتخلّ ولو للحظة واحدة عن كتابة وتبيين وتحليل حقيقة الحركة الإسلامية المقتدرة التي قادها الإمام الخميني، في زمن كانت اغلب المنشورات الصادرة باللغة الفارسية تحمل في طياتها لحناً غير ديني أو حتىٰ منافياً للدين، رغم تجلّي الحقيقة المبنية على وجود حركة إسلامية مستندة علىٰ عقيدة دينية تقدمية.

ولا يخفىٰ، من أن مفكرين إيرانيين خارج البلاد أطبقوا الصمت، سواء لجهلهم وعدم استيعابهم لآفاق الحركة الإسلامية، أو متعمدين للوقوف بوجه الصحوة الإسلامية، فغضوا النظر عن الحقائق الإجتماعية في إيران، وأنكروا جوهر الواقعية للنضال الشعبي فيها. فعرضوا زوايا ضيقة من الأحداث، بل لم تسلم الصحوة من انتقاداتهم في كثير من الأحيان.

ولحسن الحظ استطاع شريعتي وبالتعاون مع بعض زملائه الذين يتفقون معه في الفكر، أن يؤسسوا أكثر الصحف الإيرانية انتشاراً باللغة الفارسية في أوروبا. فجعل من تلك الصحيفة لسان حال الحركة الشعبية في إيران، ومساندتها وعرض حقائقها، وذلك بتنسيق الأفكار المطروحة من قبل المثقفين خارج البلاد حول نضال الشعب الإيراني في الداخل.

وبكلمة واحدة، إن الفترة الزمنية التي قضاها شريعتي في فرنسا لمواصلة تحصيله الدراسي كانت مقرونة بنشاط دائم جسد فيه

نفوذه وموقعه بين الإيرانيين في الخارج. وعلى الرغم من أهمية المجالات المختلفة لنشاطه، فإنه لا يمكننا أن نعرض جزئياتها الكاملة هنا، وإنما أرتأينا أن نلخص بعضاً من أعمال هذا المفكر والمناضل الكبير.

## العودة إلى إيران

نشرت صحيفة كيهان ـ وهي شبه رسمية تصدر باللغة الفارسية في إيران ـ مقالاً بمناسبة وفاة الدكتور شريعتي جاء فيه:

«بعد أن ارتأىٰ شريعتي عام ١٩٦٥م العودة إلىٰ الوطن والعيش بين الناس، وخدمة وطنه وشعبه وتعاليم دينه الحنيف، توجه إلى إيران برفقة زوجته وطفليه...

وللمرحوم الدكتور شريعتي نظرات قيّمة بالنسبة للمجتمع الإيراني، إذ أوجد نهجاً جديداً لمعرفة الدين، وحارب ضمن تواجده في خندق الإسلام الأصيل، كل القيم الداعية للخرافة وزرع الفرقة والفتنة والتشتت بين صفوف المسلمين، والتي تضر بأهداف الشعب وتحرف نضاله... وبمجرد مجيئه إلى إيران زاول المرحوم الدكتور شريعتي عمله كأستاذ في جامعة مشهد!»

(عن صحيفة كيهان ٢٣/ ٦/ ١٩٧٨)

(٢/ ٤/ ١٣٥٦هـ ش)

إذا قبلنا ما جاء في الجملتين الأولىٰ والثانية من مقال الصحيفة، فإن الجملة الثالثة ستكون عين المنطق. فلو كان شريعتي

قد جلب معه مثل هذه الهوية القيمة إلىٰ إيران، فيستلزم أن يكون عمله مناسباً كأستاذ في الجامعة. ولكن هذا ليس كل ما حدث. فمجرد أن دخل الدكتور شريعتي إيران عن طريق المنطقة الحدودية (بازركان) ـ بين تركيا وإيران ـ بعد خمسة أعوام من الفراق، اعتقل أمام عيون زوجته وطفليه وأودع السجن فوراً. ومن ثم حرم من رؤية أبيه مدة طويلة. حتىٰ بعد أن اطلق سراحه عين معلّماً في الثانويات المختلفة والمعهد الزراعي، وهو المستوىٰ الذي كان يعمل فيه قبل سفره إلى الخارج، رغم حصوله على شهادة الدكتوراه، وهكذا «كان تواجده قيماً وسط المجتمع الإيراني».

أجل، فلدىٰ عودته إلى إيران، هكذا تم استقباله. لقد كان وطنه في كل فترة حياته سجناً له، تعرض فيه إلىٰ كافة أنواع الضغوط وقاسىٰ أنواع العذاب والمحن. إلاّ أن كل هذا جعله أكثر صلابة في مواصلة نضاله.

وبعد عدة سنوات أصبح استاذاً في جامعة مشهد، دون أن يتابع طلبه للإشتغال استاذاً في جامعة مشهد، فكانت حالة أقرب للالتباس منه إلى الصدفة، وعندها نذر نفسه لتعليم وارشاد جيل الشباب، وأصبح الطلبة الذين تتلمذوا على يديه فخورين به، وتهافت الكثير على سماع خطبه وحضور دروسه ومحاضراته بشكل أقلق مسؤولي الجامعة. وبسبب ضيق أُفق، وحسد وتعنت وحقد المسؤولين أولئك، حالوا دون قيامه بألقاء المحاضرات، فلم يعد مسؤولو الجامعة يتحملون خطبه ومحاضراته، مما حدا بشريعتي أن يرجح التدريس بشكل حر على الشكل التقليدي، لأنه لم يجد ثمة تفاوت

بين الحرية والمعرفة. علىٰ أية حال نال فخر التقاعد الإجباري!.

لقد منحه التقاعد من التدريس في جامعة مشهد فرصة ليدخل مرحلة جديدة من النشاط الدؤوب، حيث أخذ بكتابة التحليلات وإلقاء الخطب والمحاضرات حول أُمور اجتماعية ودينية يفيد جيل الشباب ويلائم التيار الفكري الجديد وكل شرائح المجتمع. فكان عاقبة هذا العمل أن قضىٰ خمسمائة يوم في زنزانة انفرادية دون محاكمة، وبالتالي استشهاده في المنفى!

لقد كان شريعتي مؤمناً بالتوحيد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنىً، ومفكراً يشعر بالمسؤولية الإجتماعية، ولم يتخلَّ عن مسؤوليته هذه أبداً. وقد استطاع أن يبرهن، رغم تَفشي الجهل، كيف أنه سخّر كل من: حياته، ومطالعاته، وعمله، وحتى عائلته، لخدمة هدفه وابلاغ دعوته.

لقد منح كل وقته للجهاد والنضال والإرشاد على أمل أن يحررّ هذا الجيل المنسي واللاواعي من الحيرة والهذيان الذي يرفل فيه.

فعلىٰ الرغم من وجود العقبات والمشكلات، وعلى الرغم من المساعي الكبيرة التي بذلت لمصادرة جهوده وآثاره من قبل العناصر الفاسدة والوضيعة؛ استطاع أن يترك الأثر الذي أراده للمجتمع الإيراني بفضل منطقه القوي ومنهجه العقلاني في فضح مرامي اعداء الشعب، فوجه ضربات ماحقة لمواقع الأيديولوجية الرجعية والإمبريالية الأجنبية. وأضحت آثاره المتعددة مشعلاً ينير الدرب للجيل الجديد. طاب ثراه.

## أفكاره ومؤلفاته

لم تكن لشخصية ونشاط شريعتي أهمية بقدر ما كانت لمؤلفاته وأفكاره، تلك المؤلفات التي سجلت على أشرطة تسجيل لكونه قد ألقاها ضمن محاضراته، أو ملاحظاته التي كتبها أثناء التدريس، فتم طبع ونشر عشرات الآلاف من النسخ من كتاباته ومقالاته، تلقفتها الأيدي الشابة لتتابع باشتياق ولهفة الإطلاع عليها، مما تركت أعمق الأثر في قلوبهم. إن كل ما كتب أو قيل من قبل الدكتور شريعتي كان نابعاً من الصدق والإيمان، لذا تراه يحظىٰ بالإقبال الكبير لدىٰ الجميع.

**«الرجل الصالح لا يتركه الزمن ولا تتركه الحياة لوحده، فحياته تدافع عنه، والزمن يبرئه، ولا يتمكن الأنذال من أن يدنسوا الطاهر من الرجال مهما رموه بحجر أو اطلقوا عليه من كلاب».**

(عن كتاب كوير)

في نظرة عابرة لمؤلفاته المثمرة والعميقة الأصالة، يتبين لنا بأن شريعتي لم يكن يؤمن بالأعمال السطحية والظاهرية. ومن هنا فقد تمكن بواسطة قلمه المقتدر وأسلوب بيانه الفصيح أن يعبّر عن أعمق الأفكار الفلسفية وأعقد الموضوعات العلمية والإجتماعية فيصوغها مفهومة للسامع والقاريء. أما الإنسان المتعصب فهو وحده الذي لا يقبلها. ولكن قد يكون هناك شيء من الإبهام في بعض كتاباته، من خلال استفادته من التمثيل والإستعارة واللغة الرمزية، والتعمّق في الكلمات، ومثل هذا يولّد الريبة والشك لدى

بعض الأفراد ممن يفكرون بصورة سطحية وهامشية، ومثل هذا الأمر جعل بعض الأفراد ـ ضيقي الأفق ـ يواجهون كتابات الدكتور شريعتي باعتراضاتهم. لقد اعتاد مثل هؤلاء أن يطرحوا انتقاداتهم الواهية عندما يتعاملون مع فكر أو بحث مرن وحيوي، وان ما كان يرمي إليه أولئك الناقدون ينطوي على أذواقهم المنحرفة، وقد نسوا قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

على الرغم من أن نظريات شريعتي تتسم بطابع الدعوة للتمسك بالدين، إلاَّ أن كتاباته تضمنت سبل المعرفة والأسس الفلسفية والتاريخية، وأسس علم الإجتماع بصورة واضحة، مستعيناً على ذلك بالعمل والانعكاسات الدائمة للديالكتيكية.

نستطيع القول طبقاً لوجهة نظر شريعتي، أن التفكير الصحيح مقدمة للمعرفة الصحيحة، والمعرفة الصحيحة مقدمة للإعتقاد، وأن توفر هذه الميزات الثلاث في الضمير الواعي واليقظ، وفي أية حركة، من الناحيتين العملية والنظرية، يوصل إلى الكمال.

عندما تكون العقيدة سطحية ويكون الإيمان سطحياً أيضاً دون وعي، فسرعان ما تتحول هاتين المزيتين إلى ضيق الأفق وتبعية عمياء للخرافة، وتصبحان حجر عثرة أمام بناء المجتمع. فبدون التحوّل العقائدي لا يمكن أن يحدث أي تحوّل عميق في المجتمع، ففي عصرنا الجديد الذي ظهرت فيه تحولات عديدة يستلزم أن نوجد تحولاً فكرياً وعقائدياً.

وقبل أن يظهر هذا التحوّل بهيئة حركة عامة، ينبغي أن

يترسخ في أعماق وجود المرء، وهذا يستدعي أن تبعث روح الحركة والنشاط في المؤسسات (المقدسة) التي مضى عليها زمن طويل من السبات والسكون، وذلك لكي تؤدي دورها الأساس في حركة وجود المجتمع.

إن المعرفة الصحيحة للإسلام تأتي على طريق فهم فلسفة التاريخ، وتستند إلى التوحيد وعلم الإجتماع حول الشرك، وهي مؤشر للحقائق الإجتماعية.

إن التحليل التاريخي الذي اثبته الدكتور شريعتي في كتابه (الحسين وارث آدم) يبين بأن الإسلام لم يكن عقيدة إنسانية تقتصر على زمان ومكان معينين، بل هو تيار يسري في كل تاريخ البشرية، نشأ من ينابيع جبلية بعيدة جداً، وقبل وصوله إلى البحر مرّ بالصخور الموجودة في طريقه. ولا يمكن لهذا التيار أن ينقطع أبداً، وفي بعض الأحيان يظهر الأنبياء والأولياء ليسرّعوا بحركة هذا التيار. وما شهده التاريخ من حروب فإنها كانت تدور بين الحق والباطل، بين التوحيد والشرك، بين المستكبر والمستضعف، والغاصب والمحروم. وهذه الحروب والمنازعات جُسّدت في قصة هابيل وقابيل، وبشكل مبسط اكثر في كفاح موسىٰ وهارون ضد فرعون، إذ مثّل الأخير الجبروت والثروة وتزوير التاريخ بصورته المثلىٰ.

لقد شكلت رهبنة الملأ من جهة، وظهور أفراد أقوىٰ منهم وأكثر حيلة (طبقة المترفين) من جهة أخرى شكلتا معاً طبقة

مستثمرة (بكسر الميم) تنازعت مع الأنبياء، في حين وقف المحرومون والمستضعفون والمؤمنون إلىٰ جانب الأنبياء والشهداء. فالإيمان بالتوحيد يعدّ من مسؤولية التزام أُولئك الذين يقرّون به وهو أمر غير قابل للتشتيت، وعلى هذا المنوال ينبغي على المجتمع الذي يؤمن بالتوحيد أن يستعين بالجهاد بشكله العملي، إذ يرجع عهد النضال المستمر إلى فجر ظهور التاريخ الإجتماعي لبني البشر في زمن آدم، وإن حملة أعلام النضال في سبيل تحقيق العدالة كانوا دائماً من الأنبياء والصالحين، وعليه فالحركة الإجتماعية للبشر تقترن وتتناسق مع النظرة التوحيدية للعالم.

لقد وضع عبء أمانة التوحيد بعد الأنبياء على كاهل الأئمة، أي علي عليه السلام ومن خلفه. فعلى مر الزمن تأصل التشيّع بفعل رفض علي والحسين ثم زينب. ومن ثم استبدل في العهد الصفوي وما بعده، حيث استخدموه كأداة لفرض سيطرتهم وإغناء ثرواتهم. وعلى رغم إرشاد الأئمة ظل وجه الشيعة الواقعي مخفياً تحت غبار الانتهازيين والشكاكين والأزدواجيين. فأخذ شريعتي على عاتقه توضيح الحقائق في محاضراته ومؤلفاته من مثل: (الحسين وارث آدم)، (التشيع العلوي والتشيع الصفوي)، (أبو ذر الغفاري)، (سلمان الفارسي)، (الشهادة) و(مسؤولية التشيع) و(الحج).

وتمكن ملاحظة انعكاس صوت شريعتي في هذه المؤلفات من خلال دفاعه عن الحقيقة وأحقية الإسلام. إن هذه المؤلفات بصورة عامة، تبين المحصلة الفكرية والتحليلية العميقة للتاريخ

والدين لدىٰ الدكتور شريعتي الذي استخلصها من المجتمع بالنهج الذي عرف به.

هناك جانب آخر من اهتمامات الدكتور شريعتي الفكرية، اختص بـ(علم الإجتماع حول الشرك) «دراسة تأثير الشرك في المجتمع» الذي يتضمن تحليلاً واقعياً وانتقادياً لمجتمعات العصر الحاضر. وفي هذا المجال، سلط شريعتي الأضواء علىٰ دور المجموعات والطبقات المختلفة في المجتمع، خاصة المفكرين والمثقفين والعقائد المتنافسة، والمذاهب الفكرية الموجودة في العالم، ودور الحضارات، والثقافات المتفاوتة التي تشترك بصفة واحدة وهي كونها عارية من الإعتقاد بالتوحيد.

كان شريعتي يؤمن بأن الإنسان المعاصر ـ إذا لم يكن معتقداً بالتوحيد ـ فإنه لا يتعدى عن كونه «موجود غريب عن نفسه» وان عمله، بنفس الوقت الذي يفقد فيه ضميره، يتحول إلى نوع من التعلّم الجديد، مدعياً فيه بأنه قد حل محل المثقفين الواقعيين. انظر مؤلفاته التالية:

«العلم والمدارس الجديدة، الحضارة والتجديد، الإنسان الغريب عن نفسه، علم الإجتماع حول الشرك، المثقف ومسؤوليته في المجتمع، الوجودية والفراغ الفكري».

ووفقاً لوجهة نظر علم الإجتماع الصرف، يمكننا أن نقول بأن عدداً قليلاً جداً من المفكرين الإيرانيين نهجوا نهج شريعتي في البحث عن الحقائق الإجتماعية في مجتمعنا المُعاصر. كانت

المفاهيم الإنتزاعية والمجردة لا جدوىٰ فيها حسب رأيه، وإنما كان يصب جُلَّ اهتماماته في الوقائع الموجودة، والقيم، وطرق العمل والفكر، والكيان العقائدي الموجود في المجتمع الإسلامي.

ولأجل عرض مثل هذا التحليل، لم يكن شريعتي يكتفي بمعرفة التيارات الفكرية في أوروبا من جهة، والحقائق الإجتماعية لمجتمعه من جهة أخرىٰ. وفي الواقع فإن معرفة كهذه تذهب بصاحبها إلىٰ الضلالة، وتكمن في طياتها نتائج غير واقعية.

ان تحليل الحقائق الإجتماعية الموجودة يمكن تقبله فقط عن طريق المراجعة واستخدام الإصطلاحات، والتعابير والمفاهيم الموجودة في الفلسفة، والثقافة، والدين، والآداب، التي تتوفر بشكل كبير ودقيق في اللغات الأجنبية أكثر من النماذج التي توجد في اللغة المحلية.

إن ترجمة وتكرار مفاهيم وكلائش علم الإجتماع الغربي، والتي تعبر عن نتاج لتحليل المجتمع الصناعي في القرن التاسع عشر في أوروبا والمجتع الرأسمالي في النصف الأول من القرن العشرين، تبقىٰ دون قيمة بالنسبة لنا، وذلك لعدم تضمنها أوجه الشبه مع حياتنا المعاصرة. ينبغي أن نحلل القيم والعلاقات الخاصة التي تبلورت في مجتمعنا، والتي تتطابق مع جوهر الحياة والسلوك الإجتماعي والحقائق الموجودة في المجتمع وردود الفعل النفسية للأفراد ازاء كل هذه الحقائق. وعليه يجب أن نأخذ بعين الإعتبار صورة المجتمع الإيراني التي تشكلت في التاريخ الإسلامي. ومع

تقديم نظام جامع للإصطلاحات والمفاهيم المتعلقة بعلم الإجتماع يمكننا أن نحلل الأمور. ومن هذا المنطلق فمصطلحات مثل: الإمامة، العدالة، الشهادة، التقوىٰ، التقليد، الحج، الصبر، الغيبة، الشفاعة، الهجرة، الفكر، الشرك والتوحيد وأمثالها هي ناطقة أكثر من الإصطلاحات الأوروبية.

كان شريعتي يضع الواقعية والحقائق نصب عينيه، ويتجنب التفكير المجرّد والإنتزاعي. كان واحداً من علماء الإجتماع الواقعيين والملتزمين، إذ تمكن ـ باستخدام نهج خاص وفكر اسلامي أصيل ـ أن يذهب أبعد مما ذهبت إليه الماركسية في البحث عن القضايا الإجتماعية. كما تمكن من تطبيق نهج تاريخي ديني عميق لعلم الإجتماع المعاصر في الإسلام، وتثبيت أسسه وفق آفاق جديدة.

لقد قام الدكتور شريعتي بتحليل واقعي لتلك الآفاق، إذ أخذ بنظر الإعتبار الأبعاد الاستاتيكية للمجتمع، أي كيانه الحالي من حيث العمل، والقيم وعقائد المجموعات الدينية وغير الدينية المتفاوتة. والأبعاد الديناميكية للمجتمع التي تعني التغيرات والتحولات التاريخية للأمة الإسلامية والمجتمع الإيراني في فترات مختلفة.

أما ظاهرة (الحياد) في علم كعلم الإجتماع فإن شريعتي لم يكن ليقبل بها. كما لم يكن يحبذ في عقيدته أن يكون الباحث الإجتماعي مشرفاً اجتماعياً فقط، حيث شهد عالم اليوم أخيراً

فقدان مفهوم الحياد العلمي بشكل كبير، وقد حلّ الإلتزام والإشتراك الإجتماعي محل المشاهدة والوصف.

بناءً على هذا، فمن الأفضل أن تدرس مؤلفات وأفكار شريعتي وفق وجهة نظر علم الإجتماع.

لقد أسس الدكتور شريعتي أُسس علم اجتماع اسلامي واقعي ذا ابعاد مختلفة، وكان رائداً فى ذلك.

والشيء المهم لنا هو أن بحثه للتاريخ، وفلسفة التاريخ، الدين، والشريعة وعلم الإجتماع كان ضمن إطار النظرة التوحيدية للعالم. وعليه فإن مسألة التوحيد ذاتها تعد أساساً فكرياً وعقائدياً لفلسفة التاريخ، إذ أنها تكشف عن ماضي الإنسان والمجتمع البشري، وهي المسؤولة عن تنبؤ المصير الذي ينتظر الإنسان في المستقبل.

إن كل تحليلاته الفلسفية، والتاريخية والعقائدية ـ على حد تعبيره بكل صراحة ـ ناجمة عن إيمانه بالتوحيد:

«التوحيد برمته منزل من السماء إلى الأرض، وهو يقتحم المجالات التعليمية والتحليلية والبحث والجدل الفلسفي والكلامي والعلمي، ليتنازع مع بقية المفاهيم الإجتماعية، ويطرح نفسه وما تنطوي من قضايا في ثناياه، ليعين العلاقة بين المجموعات الإجتماعية، والعلاقة بين الطبقات، وعلاقة الفرد بالمجتمع، والأبعاد الإجتماعية المختلفة، والبنية الفوقية والتحتية للمجتمع، والمؤسسات الإجتماعية، والعائلة، السياسة، والسلوك والعلاقات

الإجتماعية والعائلية والفردية والطبقية والمسؤوليات الفردية والجماعية ازاء المجتمع، لتصبح لهذه المجاميع الإجتماعية ركائز فكرية في التوحيد. وبصورة عامة، فالتوحيد ـ وفق ما ذكرنا ـ يعد حجر الأساس للعقيدة، والترسانة الفكرية لبناء المجتمع التوحيدي، ذلك المجتمع الذي نمت بنيته التحتية المادية والإقتصادية دون تضاد (التوحيد الإجتماعي) كما يتضمن البنية التحتية الفكرية دون تضاد (التوحيد العالمي) أيضاً».

(عن كتاب معرفة الإسلام)

فأصبح لهذا النهج الجديد الذي طرح فكرة التوحيد بأرضية اجتماعية، وربط بين فهم المجتمع ومفهوم التوحيد، مؤشراً لمرحلة ما وراء التضاد والتناقض.

إن علم الإجتماع لدىٰ شريعتي هو انعكاس لنظرته للعالم التي أعطت نتائج طيبة للمجتمع. كان يرىٰ في علم المجتمع حرباً مستمرة بين التوحيد الإجتماعي والشرك الإجتماعي، على طول التاريخ. وكانت تحليلاته الديناميكية في هذا المضمار على الشكل التالي:

«كما هو في النظرة التوحيدية للعالم، التي تعني التوحيد في العالم، فإنه بتحليل الوحدوية في الوجود، يقوم في المجتمع هذا النوع من التحليل للتجمع البشري، وبالشكل الذي يطرح التوحيد نفسه في ساحة الوجود للنظام العالمي، وهو عامل للنضال ضد القوىٰ الداعية للتفرقة والتضاد، وأرباب الأنوار، والقوىٰ الغيبية وما وراء الطبيعة، المؤثرة في تقرير مصير الإنسان والمجتمع.

عرف التوحيد في المجتمع البشري أيضاً، بصفته عاملاً مفنداً للأرباب الموجودين على وجه الأرض، والمسيطرين علىٰ مصائر الناس والغاصبين لقدراتهم، الذين يعيّنون النظم الإجتماعية وشكل حياة الأفراد، والطبقات والعلاقات الإجتماعية، وبعبارة واحدة عامة هو الشرك الإنساني».

(عن كتاب معرفة الإنسان)

ومن وجهة نظر الدكتور شريعتي، فإن كل من الإسلام المدرسي والإسلام الشعبي العام، لم يكونا ذا قيمة، وإنّما أصبحت القيمة الكبيرة (للإسلام الواعي اليقظ). إذ أنه يُرجّح المسلمون الواعون والمثقفون على المسلمين التقليديين. حيث أن بناء الذات وايجاد التحولات الداخلية مقترنان مع بعضهما في الإسلام. وعليه فإن فهم عبارة (ان الحياة عقيدة وجهاد) ـ والتي كان شريعتي يعتز بها ـ ميسّر وقابل للتطبيق.

إنها لدعوة حياتية وفورية للمسلمين الواعين واليقظين في عصرنا، وإن خطابه كان موجهاً بشكل خاص إلىٰ الشباب المثقف، فقد أصاب عندما قال: «عندما يتشبث الشباب بالعقيدة والإيمان فإنهم ينهمكون فيها بشكل كامل، وسوف يمكن أن نبني منهم عنصراً فاعلاً للكفاح في سبيل تحقيق الإسلام».

وقد تركت مؤلفات الدكتور علي شريعتي تأثيراً واضحاً بهذا الصدد لا يمكن نكرانه.

**الدكتور غلام عباس توسلي**

# الفرو المقلوب

كخبير بالعلوم الدينية . .

وخاصة أن ميدان دراستي هو : «تاريخ الأديان» . . !

وعبر تتبعي وبحثي للتطور التاريخي للأديان[١] توصلت إلى بعض النتائج، واستطعت أن أقارن بين كيفية الاعتقاد في الماضي وكيفيته اليوم . .

وبالقدر نفسه استطعت أن أستشرف المقارنة التي توضح أوجه الاختلاف بين العقيدة في حقيقتها وبين واقعها[٢] .

---

(١) إن مصطلح الأديان الذي أوردته هنا كمصطلح تاريخي واجتماعي، واستخدمته كلغة لعلم الأديان، والذي يطلق على كل رسالة ودعوة ذات جوانب دينية، في مقابل الرسالات والدعوات الفلسفية والعلمية والسياسية والأدبية والفنية وغير ذلك إن كان لها جذور ما ورائية أو لم يكن لها. ذلك لأنّ البحث في حقانية الأديان وعدم حقانيتها من مهام الحكمة الإلهية وعلم الكلام لدى كل دين. ولا أنوي هنا الخوض في ذلك.

(٢) أرجو التأمل في كل كلمة.

ومن ثم فإنّ نتائج دراستي هذه ليست قائمة على تجربة أو شعور ديني شخصي ـ وبالقدر نفسه ـ ليست قائمة على تحيّز أو غرض . .

فإذا تسنّى لي القيام بدراسة وتقييم لمدى تأثير كل دين على أساس مدى إسهامه في سعادة الإنسان وتطوره، فسوف نكتشف أن نبوة الأنبياء السابقين للنبي الخاتم محمد ﷺ لم تصل في تقدميتها وقوتها وفاعليتها ووعيها لنبوة محمد ﷺ، ولم تصل بتأثيرها في التطور الاجتماعي للإنسان، وفي وعيه الذاتي، وفي حركته وإحساسه بالمسؤولية وطموحه البشري وجهاده في سبيل العدل، ولا في واقعيتها وملاءمتها لفطرة الإنسان ودفعه للإبداع والتكيّف مع التقدم العلمي والاقتصادي، والتوجه نحو الرقي الحضاري والاجتماعي مثل رسالة التوحيد الإبراهيمية في رسالة النبي محمد ﷺ الإسلامية .

وفي الوقت نفسه لا أعرف رسالة ودِيناً من الأديان السابقة قد تعرّض لحملات الإفساد ومحاولات التحريف إلى ما يناقض طبيعته الحقيقية كما تعرضت له دعوة النبي الخاتم ﷺ ! ! . .

فلو قارنت بين الإسلام الحالي مع سائر الأديان المنحطّة العالمية لعلّك تعتبر رأيي غير سديد، لكن هذه المقارنة خطأ، فيجب قياس انحراف أي حقيقة بالنظر إلى ماضي تلك الحقيقة، ورسم مؤشر بين وضعها الحالي وما كانت عليه عند نقطة البدء .

وإذا قمنا بتلك المقارنة بين المذاهب الإسلامية، وأجرينا

بحثاً وتقييماً سنجد أن وضع التشيع في الإسلام كوضع الإسلام بين الأديان.

ويا للعجب!

ففي المقارنة بين الحقيقة والواقع لدى الأديان الأخرى يمكن استعمال كلمة (اختلاف) لكن هذه الكلمة لا تعبّر عن المصير التاريخي للإسلام والتشيّع في المقايسة مع سيرتهما، ولا يمكن التعبير عن تلك الحالة إلا بالتضاد أو التناقض[1].

---

(١) والتعبير الأكثر دقة هو ما قاله أعرف الناس بالإسلام وأخبر علماء العلوم الإجتماعية وأدراهم بالمصير التاريخي للإسلام، وخير من تكلّم وعبّر وتفنّن وهو (علي) الذي عبّر بجملة واحدة عن كل ما أراد من التعبير عنه متخصصو العلوم الإسلامية والعلوم الإجتماعية وما طرحوه من تحليل علمي لتاريخ الإسلام وما أعدّوه من كتب ومؤتمرات مطوّلة، وما قاموا به من مقارنات بين الحقيقة الأولى للإسلام وواقعه الفعلي ورسالته البنّاءة، والدور الهدّام الذي أدّي، وما حاولوا إدراكه من فهم وإحساس الناس الواعين والمفكرين المسؤولين في الماضي والحاضر عن الإسلام، والمقارنة بين ذلك كله. وتبيان جمال الإسلام وجاذبيته، وقبح ما مسخ منه، ومحاولة إثباتهم أن الإسلام دين مميّز غير سائر الأديان، وأنه كان مميّزاً في انحطاطه أيضاً، أو دفعه إلى الانحطاط، وأن الإسلام الأول كان أجمل رسالة ودعوة، وأنه أصبح في سيره التغييري نحو الإنحطاط ليصبح أبشع رسالة. نعم لقد قلت إن أسمى رسالة فكرية وأكثر رسالة إنسانية تقدّمية تحوّلت إلى أشدّ الرسالات انحطاطاً، كل هذا الحديث بيّنه (علي) باستعارة بسيطة وطبيعية من حياة عامة الناس، وبشكل دقيق وكامل حين قال: «لُبِسَ الإسلام لبس الفرو مقلوباً». فالفرو لباس، لكنه مميّز عن سائر الألبسة في الشكل والإستعمال، والفرو هو اللباس الوحيد الذي ظاهره جميل جداً، وباطنه قبيح وأسود، ظاهره ذو نقش بديع، وباطنه يخيف الأطفال، أوليس أطفالنا اليوم يرهبون من الإسلام؟ فالإنسان يلبس الفرو مقلوباً والخروف يلبسه ظاهراً.

والأعجب!

إنَّ الأمر يبدو وكأن قوة ما أعدت لها التسهيلات المادية والتوجيهات المعرفية، ظاهراً وباطناً، ثم استخدمت جمع من الأذكياء ذوي العلم الواسع من فلاسفة التاريخ وعلماء الاجتماع وخبراء في مختلف العلوم الاجتماعية، بما فيها علم النفس الاجتماعي ودهاة السياسة وعلماء اللاهوت ومفسري القرآن ودارسين للغة العربية والآداب الإسلامية، بما فيها الشعر والنثر وعلوم الفقه ومتخصصين في الشؤون الاجتماعية للمسلمين: من عادات وتقاليد وأعراف، ومن العالمين بمواطن الضعف والقوة لدى المسلمين بعد دراسة متعمقة للشخصية المُسلمة وسلوكها النفسي والاجتماعي والاقتصادي..

كل هؤلاء التقوا في عملية التحريف الشاملة لعقيدة الإسلام من خلال متابعة حاذقة وعبر خطة علمية مدروسة مستهدفة الإسلام والمسلمين..

* * *

إنَّ المدى الذي بلغته معرفتي يؤكد لي من زاوية نظرية وعملية أن الدعائم الأساسية لعقيدة الإسلام (والتي تمثل الدوافع المحرّكة لأمة المسلمين، وتجعل الفرد المسلم حراً وواعياً وكريماً ومسؤولاً نحو المجتمع) هي: **التوحيد والجهاد والحج**.

ومن المؤسف أن ينحصر مفهوم التوحيد في مناهج المدارس الدينية داخل الجدل الفلسفي وعلم الكلام الذي لا يتداول إلاَّ بين

قلة من علماء الإسلام، والذي هو في حقيقته ليس إلاً جدل عقيم لا يمت بصلة إلى أي بعد تطبيقي عملي متعلق بحياة الناس. .

وبعبارة أخرى: إن الذي بقي من التوحيد هو مفهوم الإله الواحد، وليس التوحيد بأبعاده الحقيقية. .

أما مفهوم الجهاد فقد تمت مصادرته تماماً، ودفن في مقابر التاريخ. .

وقد حُرّف عماده المتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح يعني أن تلوم صديقاً لك! . .

فضاع معنى التصدي للفساد والانحراف ومظاهر الفسق في أشخاص مرتكبيها. .

وأخيراً فقد صُوِّر الحج كعمل مشوه مناقض للمنطق يقوم به المسلمون كل عام. . !

لقد أفلح أعداء الإسلام في أن يلحقوا بفريضة الإسلام الخامسة التحريف الذي يبتغونه، وذلك بانتهاج سياسة موحدة. .

فقد أُضرمت الخلافات الفقهية في أبواب الطهارة والصلاة من كتب الفقه إلى حياة الناس لتستهلك طاقة كل من يلجأ إلى المسجد! . .

وفي الوقت نفسه دُفِعَ القرآن الكريم ليأخذ مجراه إلى الجالسين عند المقابر يتلونه على أرواح الموتى! . .

أما في المدارس الدينية فقد نُحِّيَ القرآن الكريم عن حياتهم

بطريقة أخرى، ووضع على الرفوف لتحل محله كتب أصول الفقه وعلم الكلام (على أيدي المعلمين).

وواقع الحال الظاهر لكل عين سليمة يشهد على ما يؤول إليه حال المسلمين عندما يغيب القرآن عن حياتهم وعن مناهج الدارسين والمتعلمين منهم..

تُرى هل يستطيع المفكر المتجرد الذي يستشعر مسؤوليته تجاه شعبه، أو المسلم الذي يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه، أو المفكر المتجرد الإسلامي الذي يستمد شعوره بالمسؤولية من إيمانه وأمته معاً.. وهو يقبع ساكناً أن يحس بالراحة؟..

هل ترى كل واحد منهم حين يظن أنه باللجوء إلى أحد مذاهب الفكر الغربي سوف ينقذ أمته ويحل مشاكلها؟!!..

كلا يا صديقي المفكر ويا أخي المسلم!!..

إن تكن تستشعر المسؤولية تجاه الله أو تجاه الشعب أو الأمة ـ سواء ـ فنحن في زورق واحد، ويناط بنا مسؤولية واحدة، وفي سبيل حريتنا واستعادة كرامتنا وعزتنا فالطريق الأمثل هو أن نسلك ذات السياسة التي ينتهجها عدونا، وأن نعود إلى الطريق التي ضللنا عنها:

فلا بدَّ أن نُعيد القرآن الكريم مرة ثانية من القبور والمآتم إلى الحياة وتفاعلاتها، وأن نقرأه على مسامع الأحياء لا الموتى، وأن نسحبه من على الرفوف ونفتحه أمام عيون الطلاب والدارسين بمختلف نوعيات دراستهم ومستوياتها..

فقد عجز عدونا عن القضاء على القرآن، ولكنه عمل على تنحيته بعيداً، مغلقاً في زاوية مهملة بعيدة، بعد أن أحاطه بهالة من الاحترام اللازم «للكتاب المقدس» الذي لا يُمسّ!..

وعلينا نحن أن نعيده «كتاباً للقراءة والدراسة والعمل» أي المعنى الذي يؤكده لفظ القرآن الذي سمي به[١]..

ترى هل يجيء اليوم الذي يصبح فيه القرآن الكريم هو الكتاب الأساسي، والدستور الأعلى لمدارسنا الإسلامية، ومصدر الإلهام في دروسنا الإسلامية؟..

هل يجيء اليوم الذي تكون فيه الدراسات القرآنية شرط للتأهل لدرجة الاجتهاد؟..

إننا إذا عدنا إلى القرآن الكريم، واهتدينا بهديه في حياتنا ـ عندها فقط ـ سوف يتسنّى لنا أن ندرك جوهر عقيدة التوحيد..

وإذا اعتبرنا القرآن دستوراً أعلى لنظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فسوف ندرك الفعالية والابداع اللذين تتضمنهما واجبات مثل: الحج، والجهاد، والإمامة، والشهادة... وسوف ندرك معنى حياتنا نفسها!!..

* * *

(١) من كثرة الآيات التي تبين هذا المعنى يضيق المجال عن ذكرها، وأحيل إلى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن باب: قرأ، درس، كتاب.. وكذلك إلى لسان العرب.

وقد حان الوقت للنظر في أحد هذه الواجبات: «الحج» انطلاقاً من وجهة نظر توحيدية..

فهذا الكتاب هو ملخص تجربتي الشخصية وفهمي بعد أدائي للعمرة ثلاث مرات، وأدائي للحج الأكبر مرة..

وهو لا يعدو كونه تعليقاً وتفسيراً لشعائر الحج من عبد خاضع لمولاه..

فهو ليس كتاباً عن مناسك الحج على أساس شخصي، فهذا لا يجوز شرعاً..

وهو لا يتحدث في أبواب الفقه، ولكنه أطروحة تدعوك للتفكير..

وكل ما فعلته هو محاولة لتفسير المناسك كما يفعل أي حاج بعد عودته إلى بلاده، ومحاولة تداول الأفكار والآراء مع الآخرين.. وهذه سُنّة..

ففي كل عام يتاح للأغلبية التي لم تجد فرصة للحج أن تشارك الأقلية التي استطاعت الحج مشاعرها وانفعالاتها وخطوات رحلتها وخلاصة ما جنته من هذه التجربة الفذّة.

ولو اضطلعت قيادة مسؤولة بمهمة توجيه وتعليم مليون مسلم يأتون من كل فج عميق من البلاد المتخلفة ومن مستويات تعليمية شبه أمية، أو قل شبه متعلمة..

ولو أُعطي هذا العمل الاهتمام الذي يصرف للمأكل والصحة

والهدايا التذكارية ومظاهر الرفاهية الأرستقراطية القبيحة . .

ولو أنها اهتمت قليلاً بتأمل معنى شعائر الحج بدلاً عن الانصراف إلى التفاصيل إلى درجة الإغراق فيها وغياب الوعي . .

لو حدث كل هذا لأمكننا أن نجعل من الحج، كل عام دورة دراسية تُشرح فيها عقيدة الإسلام نظرياً وعملياً لمليونّ حاج يمثلون كل مكان في العالم، ولأدرك هؤلاء جميعاً ماذا تعني مقاصد الحج، وماذا تعني النبوة، ويدركون القيمة التي تنطوي عليها وحدة المسلمين ومصيرهم، ولأمكنهم أيضاً أن يعودوا بما حفظوا من المعارف والمعلومات إلى أوطانهم ومجتمعاتهم وأقوامهم وعشائرهم وأسرهم . .

خلاصة الأمر أنّ الحج بهذا الفهم كان سوف يصير مدى الحياة مرشداً لهم في ظلام المجتمع كالشعاع الذي يضيء في دياجير الظلام . .

**علي شريعتي**

# مدخل

ما الذي تعلمته من الحج؟

هذا التساؤل ينبغي أن يطرح إبتداءً . .

وما هي ماهية الحج؟

الحج في جوهره هو عملية ارتقاء الإنسان نحو الله . .

وهو المظاهرة الرمزية لفلسفة خلق آدم . .

وبعبارة أوضح وأقرب: إنّ أداء شعائر الحج هو استعراض لعدة أشياء في وقت واحد؛ فهو: «عرض لقصة الخلق» وهو: «عرض للتاريخ» وهو: «عرض للوحدة» وهو: «عرض لعقيدة الإسلام» وأخيراً هو: «عرض للأمة» . .

الأركان الأساسية السائدة في وجه العرض هي:

* الله تعالى: وهو المدبر الذي يوجه الحركات على «خشبة المسرح»[1].

---

(١) يقصد بها المؤلف تشبيهاً مجازياً، ولا صلة لها بمفهوم المسرح الهزلي أو الفني السائد بتداعياته المقبولة وغير المقبولة!

* الموضوع الذي يُصوّر: هو حركة الأشخاص المشاركين في العرض.

* الشخصيات الأساسية في هذا العرض هم: آدم، إبراهيم، هاجر، الشيطان.

* المشاهد: هي المسجد الحرام، ومنطقة الحرم، والمسعى، وعرفات، والمشعر الحرام، ومنى.

* الرموز الأساسية في العرض تشمل: الكعبة، والصفا والمروة، والنهار والليل، والشروق والغروب، والأصنام، وشعائر الأضحية..

* الملابس والمكياج: هي الإحرام، والحلق والتقصير..

* أخيراً فإنّ الذي سيؤدي جميع الأدوار في هذا العرض هو شخص واحد: أنت!..

لا اعتبار لكونك رجلاً أو امرأة.. شاباً أو شيخاً.. أبيضاً أو أسوداً،.. فأنت السّمة الأساسية لهذا الأداء؛ فإنّ دور آدم، وإبراهيم، وهاجر وهم يواجهون الاختيار بين الله والشيطان ستؤديه أنت..

خلاصة الأمر: أنك أنت بالذات بطل هذا العرض.

* * *

إنَّ المسلمين في كل بقاع الأرض يدعون في كل عام للمشاركة في هذا العرض الجليل..

الكل سواسية كأسنان المشط، لا فرق ولا تمايز بينهم لاختلاف الجنس أو الأصل أو الطبقة الاجتماعية..

ووفقاً لمبادئ الإسلام فإنّ الكل يساوي الفرد، والفرد يساوي الكل:

﴿... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا... وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا..﴾[1].

* * *

وتستمر افتراءات أعداء الإسلام متمثلة في حملات تستهدف النيل من قيمه وتعاليمه، وخاصة ما يرمونه به من عدم احترام عقلية الإنسان وكيانه وحقوقه كإنسان!..

وبالنسبة لفريضة الحج فقد جعلوها فريضة هامشية قليلة الأهمية..

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «كأن الإسلام هو أن تلبس العباءة مقلوبة!»

ما الذي تعلمته أنا الباحث الشغوف من الحج «الركن الخامس للإسلام»؟

وإلى أي مدى أستطيع أن أستنبط، وأن أدرك من معاني هذه التجربة؟..

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

إنَّ الصفحات الآتية تحوي جهدي المتواضع في محاولة للإجابة عن هذين التساؤلين..

وليس هدفي ـ بالطبع ـ وصف ما الذي يجب عليك أن تفعله في الحج، فهذا الغرض يمكن تحصيله بالرجوع لأي كتاب من كتب المناسك..

لكن الذي أريده هو أن أشركك معي في المعاني التي تجسدت لي من تلك المناسك، والتي ستعينك على أن تفهم الحكمة التي من أجلها شرّع الله الحج، أو على الأقل تدفعك للتفكير في تلك المناسك.

* * *

# الخروج عن مألوفات حياتك

الحياة اليوم ليست هي الحياة كما ينبغي لها أن تكون؛ فهي لا تعدّ وكونها تدور في حلقة مفرغة، أو هي حركة لا تقصد إلى هدف ولا ترمي إلى غاية، أو هي كرقّاص الساعة يغدو ويروح بلا معنى.. فيبدأ الإنسان دورته نهاراً لينهيها ليلاً، ويبدأها ليلاً لتنتهي مع خيوط الصباح. وبين هذا وذاك يجلس ليراقب لعبة الفأر الأبيض والفأر الأسود وهما يمضغان نسيج حياته حتى يفضيان به إلى الهلاك[١].

فالحياة (حياة الإنسان) الآن أشبه ما تكون بقاعة مسرح، والإنسان مشاهد لتعاقب الليل والنهار حيث لا هدف ولا معنى..

ويبقى السؤال: ما الذي ترمي إليه هذه المسرحية الضيّقة الأفق؟

---

(١) راجع باب (برزويه المتطبب) من كتاب «كليله ودمنه». وهو كتاب في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق والإرشاد إلى حسن السياسة. جعلوه على ألسنة الحيوانات. نقله ابن المقفع عن الفهلوية. «المصحح».

إنَّ الإنسان إذا استشعر حاجته إلى شيء ما، فإنه يكافح في سبيل الحصول عليه، وإذا توصل إليه، فإنه ينظر إلى هذا الشيء وما بذله من جهد للحصول عليه بشيء من الاستخفاف!. فيا لها من حياة مادية لا معنى لها، نغرق أنفسنا فيها..

إنَّ افتقاد الإنسان للوجهة، وجَعْل هدفه من الحياة هي الحياة ذاتها، وسلوك سبيل المتفرج السلبي لتعاقب الأيام، يجعل منه روحاً ميتة في جسد حي.

وقد جاء الحج ليغيّر هذه الحياة السقيمة..

عندما تقرّر أن تؤدي فريضة الحج، وتبدأ الخطوات اللازمة لذلك؛ تكون قد دخلت بالفعل في الحج..

قبل الشروع في الذهاب إلى الحج تكون ساكناً في بيتك مستقراً هادئاً..

وما أن تُهّيء ذهنك للحج؛ فإنك تنهض وتتحرك بعيداً عن أجوائك الرتيبة..

الحج مضاد لحياة اللامعنى واللاهدف.

أداء الحج خلاص من شِبَاك الحيرة المعقدة..

سافر من دارك ووطنك لتزور «بيت الله» أو «بيت الناس»[1].

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ سورة آل عمران: الآية ٩٦.

إنك أنت ـ أيّاً من تكون ـ إنسان، وابن آدم، وخليفة لله في الأرض، ومن عيال الله (والناس عيال الله) ومحل أمانته، وسيد الطبيعة، والمتعلم من الله..

لقد علمك سبحانه الأسماء كلها ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[١] ونفخ فيك من روحه، وزوّدك بالخصائص المتميزة، وجعلك محل ثنائه..

حتى ملائكته ـ سبحانه وتعالى ـ أسجدها لك، وسخّر لك ما في الأرض جميعاً، وأحاطك برعايته..

وأينما تكون يراقب أعمالك..

وهو ـ سبحانه ـ في عونك..

* قلب المؤمن عرش الله أو عرش الرحمن[٢].

* ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٣].

* ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[٤].

* ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٢) يقول المؤلف: جاء في حديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأورده صاحب أسرار الحكمة، ص ١٦٦، ٢٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٣.

(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٧.

* ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

ومع مضي الوقت وبتأثير قوى وعوامل مختلفة في النظام الاجتماعي الذي لا يقدر حقوق الإنسان ولا واجباته، فإنّ شخصيتك سيعتريها التغيّر، وفطرتك ستصيبها الآفات.

ومع تقلبات الحياة وابتلاءاتها فإنك ستغدو مهملا ومعزولاً..

لكن الأصل في الإنسان ـ الذي يحمل نفحة من روح الله في أعماقه ـ أن يكون خليفة لله في الأرض، وموضع ثقته سبحانه..

لقد ائتمنك الله على الوقت لأنه وسيلتك للوفاء بتلك الخلافة، ولكنك أخفقت لأنك أهملت نعمته ولم تحسن استغلالها ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[2].

* * *

هذا هو معنى الحياة الذي من أجله كانت..

لكن، ما الذي تحقق على أرض الواقع بالفعل؟! وكم مشروع تمّ إنجازه؟..

وما هو كسبك أنت بالذات؟ ما الذي قدمته أنت نفسك؟..

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢.

(٢) سورة العصر، الآيتان: ١ ـ ٢.

كم من السنين الغالية بدّدتها هدراً؟ . .

والسؤال قائم: من تكون أنت؟ . .

إنك حامل أمانة الله وخليفته في أرضه، ولكنك وجهت وجهك نحو المال والنساء ومختلف الشهوات . . والطمع والعدوان والخيانة . .

لقد انحدرت إلى درك الحمأ المسنون الذي كنت فيه قبل أن ينفخ الله فيك من روحه، فأين هي روح الله اليوم؟! .

إنهض أيها الإنسان من هذه الأوضاع المزرية، وتحرّر من هذا الموت البطيء . .

اخرج من أرضك، واذهب إلى الأرض المقدسة لتلقى الله تحت أديم السماء العامرة بالإلهام، المفعمة ببركات الوحي: سماء المشعر الحرام لتهزم الغربة التي تعانيها . .

وأخيراً: ستلقى نفسك! . .

# الموسم

والآن حان الموعد، إنها لحظة اللقاء، ذي الحجّة، شهر وحج، شهر الحرمة، السيوف هدأت، صمتت همهمة خيول الهيجاء وصرخات المحاربين.

# التوجه تلقاء الله

يحين الحج في الشهر المبارك «ذي الحجة» على أرض مكة التي يلفها السلام والسكينة؛ حيث لا مكان فيها للخوف والبغضاء والحرب..

إنها صحراء تمتاز بالأمن والسلام، ويسود فيها مناخ العبادة والروحانية حيث يتاح للناس أن ينعموا بلقاء الله الرحمن الرحيم..

أم تسمع نداء إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

أيها الإنسان، يا من خلقت من حمأ مسنون أو من صلصال كالفخار، إبحث عن روح الله فيك، واستجب لدعوته، واذهب لتلقاه فإنه ـ سبحانه ـ ينتظرك.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

إنَّ بقاء الإنسان في الحياة دون التوجه للإنابة إلى روح الله استهتار لا معنى له . .

حرّر نفسك من رغباتك وأطماعك التي تنأى بك عن الله، وانضمّ إلى الفوج البشري الخالد المهاجر إلى الله في الحج . . وهناك ستلقى الله .

* * *

قبل الذهاب إلى الحج يجب أن تسدّد ديونك كلها . .

كل أحقادك وضغائنك تجاه الأهل والأصدقاء لا بدّ من تصفيتها ونبذها وإصلاح ما نتج منها . .

عندئذ فقط تكون نيتك حاضرة للحج . .

وهذه المقدمات كلها يقوم بها الإنسان ـ أيضاً ـ عندما يستشعر دنوّ أجله! . .

وهذه المقدمات تحقق طهارتك المادية والمعنوية والنفسية . .

إنها لحظات الوداع الأخير . .

وها قد تمّ تصوير مستقبل الإنسان بعد لحظات الوداع الأخيرة والرمز إليهما . .

والآن فقط صرت حراً لتنضمّ إلى قافلة الخلود . .

لا حيلة لك، وليس بيدك شيء، وأنت في موقف البعث أمام ميزان أعمالك، وسمعك وبصرك وفؤادك خير شاهد عليك:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[١].

أنت وكل جارحة في جسدك مسؤولون عن أعمالكم.

وما دمت في دار العمل فاستعدّ لدار الحساب، واختبر الموت قبل الموت، واذهب إلى الحج..

فالحج يمثل الرجوع إلى الله تعالى الذي لا تحدّه حدود، وليس كمثله شيء..

والرجوع إلى الله هو دلالة قاطعة على اختيار الإنسان وسعيه نحو الكمال والخير والجمال والقوة والعلم والحق والأخلاق الفاضلة..

في رحلتك إلى الباقي ستكون الرحلة سرمدية حيث يقودك إلى الصراط السويّ، وحيث تمتدّ الرحلة بلا نهاية..

وطريق الإسلام مختلف عن طرق الصوفية السكرى[٢] فحياة المسلم ليست بحياة لاهوتية ساكنة، ولكنها حياة جهاد ومجاهدة للتقرّب إلى الله:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٣].

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) يقصد المؤلف الجانب السلبي، والذي ينتج من الممارسات الخاطئة.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٣.

فليس هدفنا أن «نفنى» لكن أن «نزهر»! مبتغين في ذلك وجه الله وحده تقرباً إليه سبحانه.

والله تعالى ليس ببعيد عنك حتى تجهد في الوصول إليه؛ فإنه أقرب إليك من حبل الوريد:

﴿.. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1].

وبهذا المفهوم نعلم أنّ كل شيء من دون الله هو أبعد عنّا من الله سبحانه وتعالى بُعداً متفاوتاً..

* * *

يا أيها الإنسان..

يا من أمر الله ملائكته بالسجود لك!

ها قد استطال عليك العهد، وأحكم المجتمع عليك نفوذه حتى تبدلت تبدلاً كبيراً..

فلم تبقَ صامداً ومخلصاً لعهدك بأن تعبد الله وحده، فتعبّدت للطاغوت..

وبعض الطواغيت صنعتها أنت بيمينك!!

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

لقد أضحى طابع حياتك الإخلاص لبعض الأفراد والخضوع

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

(٢) سورة القمر، الآية: ٥١.

للهوى الشخصي، والقسوة، والجهل، وانعدام الوجهة، والخوف، والطمع..

صارت حياتك ـ إذاً ـ مشاكلة ومشابهة لطباع الحيوان، وأصبحت مثل الذئاب والثعالب والفئران والخراف!.

أيها الإنسان عُد إلى أصلك، واذهب للحج، وزُرْ ربك الودود الذي خلقك في أحسن تقويم..

إنه ينتظرك ليراك..

دع قصور السلطان، وكنوز الثروة، ومعابد الضلال.

وأطلق سراح نفسك من هذا القطيع الحيواني الذي يرعاه الذئب.

انضم إلى جيش «الملبّين» السائر إلى «بيت الله» أو «بيت الناس»[1].

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

# أدخل إلى الميقات فرداً[1]

يبدأ العرض في الميقات.

وفي هذا الموضع يجب على المثل (الإنسان) أن يبدّل ثيابه..

لماذا..؟!.

لأنّ ثياب الإنسان تكسوه من الخارج مادياً كما تكسوه الشخصية من الخارج معنويا..

بعبارة أخرى: فإنّ المرء لا يرتدي ثيابه، ولكن ثيابه هي التي تغطيه؛ فملابسنا هي التي تعبّر عن أنماط حياتنا، وتميّزنا وتحدّد طبقتنا ووجهة تفكيرنا، وهي التي تقيم الفواصل والحدود بين الناس، مما يسبب التفرقة بينهم في معظم الأحوال..

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ سورة مريم، الآية: ٩٥. والآية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

وأكثر من ذلك فإنّ الملابس تجعل مفهوم «الأنا» يقتحم، وليس مفهوم «النحن». . كلمة «أنا» ـ في الملبس ـ تأتي في سياق يعبر عن «عنصري» أو «طبقتي» أو «عشيرتي» أو «مكانتي» أو «أسرتي» أو «مقدرتي». . ولا تعبّر عن معنى «أنا» باعتباري إنساناً.

حواجز كثيفة أقيمت في حياتنا صنعتها سلالة قابيل من القتلة والقساة، حتى تمزّقت الروابط بين أفراد الأسرة الإنسانية من أبناء آدم، وتشتتت وحدة الجنس البشري إلى تقسيمات وأشكال عديدة، نتج منها شبكة من العلاقات تجسدت في:

سادة وعبيد. . مستكبرين ومستضعفين. . مستعمِرين ومستعمَرين. . مستغِلّين ومستَغَلّين. . أقوياء وضعفاء. . أغنياء وفقراء. . متخمين وجائعين. . أشراف وسوقة. . أشقياء وسعداء. . نبلاء ووضعاء. . متحضرين وغير متحضرين. . شرقيين وغربيين. . عرب وعجم.

وهكذا انقسمت الأسرة البشرية إلى أعراق وأجناسٍ وأمم وطبقات وجماعات وعائلات. . لكل منها مرتبة مميزة وقيما خاصة وأسماءً وألقاباً، وكل ذلك لإظهار التفرّد رغم ما يكلفه من تصنّع وجهد. .

* * *

إخلع ثيابك الآن عند الميقات، وارتدِ الكفن[1] المؤلف من قماش أبيض خالص. . أصبحت ثيابك مثل ثياب أي فرد، وبدا

---

(١) يقصد ثياب الإحرام.

الجميع في الزي الموحد. .

تحولت إلى جزء ينضمّ إلى الكتلة العريضة، وإلى قطرة تدخل في المحيط.

لا تكن مختالاً فخوراً، فلست هنا لتلاقي نداً أو نظيراً، بل تواضع وانكمش، واخشع لأنك ستلقى الله. .

كن الحي الذي يقترب من الموت، أو الميت الذي يستشعر وجوده. .

في أرض الميقات ـ ودون اعتبارات الانتماء والطبقة ـ إنزع عنك كل قناع كنت ترتديه في حياتك اليومية:

قناع الذئب الذي يرمز إلى الوحشية والطغيان. .

قناع الفأر الذي يرمز إلى المكر.

قناع الثعلب الذي يرمز إلى الخديعة. .

قناع الخروف الذي يرمز إلى الخنوع والذلة. .

دع كل ذلك في أرض الميقات وعد إلى جذورك الأصلية: إنسان فرد من نسل آدم لا غير، أو كما ستكون في المنتهى يوم تموت، وما بعد الموت. .

لف نفسك بقطعتين من القماش[1] تغطي إحداهما كتفيك

---

(١) تلف واحدة بوسطك وتسمى «الإزار» بحيث تغطي ما بين السرة إلى ما بعد الركبة بما فيها السرة، والأخرى توضع على الكتفين والظهر دون الرأس ويسمى «الرداء».

وتتدلى الأخرى من حولك لتغطي جزءك الأسفل.

ليس ثمة نسق خاص من التفصيل، أو نوع معيّن من القماش.. مجرد نسيج بسيط خالٍ من الألوان، والجميع يرتدون نفس النمط من الإحرام، فلا يعكس المظهر امتيازاً لأحد..

قوافل الحجيج من كل بقاع العالم تلتقي في الميقات، في ذات المكان وذات الزمان.. معاً في الطريق إلى الله، حيث لا يكون الإنسان كما هو، ولكن كما ينبغي أن يكون:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

يا للروعة كل شيء يتحرك من طور إلى طور: الحياة والموت.. الموت والحياة.. التناقض.. التحوُّل.. والوجهة:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[2]

وهكذا يبقى الله وحده كاملاً خالداً سبحانه:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[3]

الحج أيضاً «حركة» حيث يقرّر الإنسان العودة إلى الله ويدفن كل أنانيته وحبه لذاته في أرض الميقات، ويشهد موته بنفسه ويقف بقدميه على قبره..

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

هنا يستحضر الإنسان المصير الأخير لحياته، ويخوض تجربة الموت في الميقات، وسوف يخوض تجربة البعث عندما يستأنف المناسك بين الميقات والوقوف بعرفة..

**فالمشهد أشبه ما يكون بيوم الحساب:**

فعلى امتداد الأفق يتدفق طوفان من اللون الأبيض..

كل الناس يرتدون الكفن، ولا أحد يمكن التعرّف عليه..

تركت الأجساد في أرض الميقات، والروح وحدها هي التي تندفع هنا..

الأسماء والأعراف والمراتب الاجتماعية لا تستطيع أن تخرق هذا التضامن العظيم، حيث ينبعث مناخ الوحدة عبر الزمان والمكان..

إنه استعراض بشري خاضع لله الواحد القهار..

الخوف والرجاء.. الرغبة والرهبة.. الدهشة والإقبال..

كلها تنصهر داخل جسيمات دقيقة مجذوبة داخل حقل ممغنط..

تقشعرّ الجلود وتلين لذكر الله.. وتوجل القلوب وتنتشي الأفئدة..

جعل الله الكعبة قبلة له سبحانه، والإنسان وحده يعرض نفسه مولياً وجهه شطرها واقفاً تلقاءه سبحانه..

في هذه الأرض الجرداء القاحلة تتلاشى كل الأمم والعشائر في قبيلة واحدة ووفد واحد يستقبل القبلة الواحدة. .

* * *

الآن وبعد أن نزعت عنك ملابسك وكل شارة تميزك، وعليك أن تدخل إلى قلب الزحام وأنت محرم، وعليك أن تنسى كل شيء يذكرك بحياتك. .

كل واحد يفني ذاته، ويأخذ شكلاً جديداً هو شكل الإنسان كما خلقه الله. .

كل الأنانية والخصاصة تدفن، وتصبح المجموعات هي الأمة. .

كل «أنا» تموت في أرض الميعاد لتنشأ «نحن». .

قبل أن يحين موعد مغادرتك إلى «منى» يجب أن تكتمل في أمة كما فعل إبراهيم:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]

وفي النهاية سيصبح الواحد هو الأمة، والأمة هي الواحد، والجميع سواسية. .

لقد تحول مجتمع الشرك إلى مجتمع التوحيد، وهذه هي الأمة أو الجماعة التي هي على صراط مستقيم. .

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٠.

إنه مجتمع الكمال والنشاط الذي تقوده القيادة المسلمة «الإمامة».

كل من يؤدي الحج فإنه يبتعد عن نفسه وهواه، ويتوجه للقاء الله تعالى..

لقد نفخت فيك روح الله، وغادرت دار الغربة إلى دار السلام، وكشفت لك حجب الحقائق، وانتصرت على الجهل والقهر، وأشرقت روحك بمعاني الوعي والعدل، ونبذت الشرك واعتنقت التوحيد.

وقبل ذلك فإنّ أداء الحج لأولئك الذين أهملوا طبيعتهم الإنسانية والذين اغتربوا عن ذواتهم بالسلطان أو بالمال أو بالجاه أو بالأرض أو بالعصبية، والذين كانت حياتهم لا تعني سوى الحياة الدنيا..

كل هؤلاء قد أتاح لهم الحج أن يكتشفوا ذواتهم، فهم الآن يرون بعضهم بعضاً «مجتمعين» كأنهم «واحد» أو يرى كل واحد منهم الآخر «منفرداً» كل واحد «إنسان» ولا شيء غير ذلك..

❊ ❊ ❊

# النية

قبل أن تدخل إلى الميقات حيث التحوّل العظيم وبداية الثورة، لا بدَّ من الإفصاح عن نيتك..

فما فحوى هذه النية؟ وعلى أي شيء تنطوي؟

إنها نية تلبية دعوة رب الناس إلى بيت الناس..

نية الانتقال من بيتك إلى بيت الناس؛ من الحياة إلى الحب..

من الطبقية والعنصرية إلى المساواة والوفاء والحق..

من إنسان تغطيه الثياب إلى فرد عارٍ لا يستر جسده إلاَّ خرقة..

من الحياة الرتيبة اليومية إلى الحياة السرمدية الأبدية.

باختصار: إنه الانتقال إلى حالة الإحرام.

ومن هنا كان لا بدَّ أن تؤكد على نيتك بقوة.

وذلك لأنك ستبدأ في النمو خارج قوقعتك كما تنمو نواة التمر.

ولهذا أيضاً يجب أن تكون في أعلى درجات الانتباه واليقظة، وأن تكون واعياً أقصى ما يكون الوعي.

والنية لا تكون صادقة إلا إذا كان قلبك عامراً بالإيمان.

فاقدح زَنْد قلبك بنور الحب واليقين، واجعل الإيمان الفياض وقوداً لهذا الحب واليقين، ليبقى تلألؤه عامراً في قلبك..

انسَ كل ما يتعلق بشخصيتك.

* * *

لقد كانت حياتك في الماضي مزيجاً من التقصير والجهل، وكنت لا ترى لوجودك معنى..

حتى في حياتك الوظيفية والعملية صرت عبداً تعمل بحكم العادة أو مقهوراً بالأوامر..

الآن تحوّل عن هذا النمط من الحياة، وعد إلى فطرتك واعياً مؤمناً واثقاً بالله الرحمن الرحيم، وانظر نظرة جديدة إلى الحياة وإلى الناس وإلى نفسك!..

اختر وظيفة جديدة، وقبلة جديدة، وروحاً جديدةً..

* * *

# الصلاة عند الميقات

حينما تصل إلى أرض الميقات أو تحاذيها، تستعدّ لتبدأ المناسك الفعلية للحج، وتركز ذهنك فيما يجب أن تفعله، ولماذا تفعله . .

وفي ثياب الإحرام ستؤدي صلاة الإحرام[١] .

لتكن أنت بنفسك حاضراً حضوراً كاملاً أمام الله الرحمن الرحيم . .

عندئذ قل : (يا الله . . لم أعد عبداً للطواغيت . لم أعد عبداً للنمرود . . يا الله إني أقف أمامك كما وقف أمامك قبلي عبدك إبراهيم . . متجرداً من طغيان الذئاب . . متجرداً من غش الثعالب . . متجرداً من شح الفئران . . كلا ! . . إني لا أقف بين يديك إلاّ كمجرد «إنسان» يلبس ذات الكفن الذي سيلقاك به في دار الآخرة) .

إنَّ هذا الحضور الكامل يعني أنك قررت بكامل إرادتك ووعيك

---

(١) إذا لم يحرم عقب صلاة مكتوبة صلى ركعتين وهما مستحبتان .

أن تكون عبداً لله وحده، تؤمن به وحده، وتكفر بكل ما دونه.

وقد عبّرت عملياً عن حضورك التام كما كلفك به سبحانه من واجبات وفرائض.. إن هذا الحضور التام وهذه المعاني التي تنبثق منها هي المعاني نفسها التي تنبثق من الصلوات الخمس التي تؤديها في اليوم والليلة، ولكنها في هذا المقام تكتسب خاصية فريدة في استجابتك لدعوة أبيك إبراهيم، تتجسد في مناجاتك الحميمة معه سبحانه وأنت تستشعر حضوره جلَّ شأنه قريباً منك.

قل: (يا الله.. يا أكرم الأكرمين.. يا أرحم الراحمين.. يا من تعالت رحمتك وعزتك فوق صداقة الأصدقاء وعداوة الأعداء، وصلاح الصالحين وفساد المفسدين، وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين.

يا الله إني أعبدك لأنك وحدك أهل للعبادة.. لم أختر لي سيداً سواك.. أنت مالك يوم الحساب ويوم الدين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

لك حبنا كله.. ولا معين لنا سواك.. ترانا أضعنا أنفسنا بجهلنا.. ترانا كيف ضلّ بنا الطغاة.. ترانا ضعفاء تائهين: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[2].

عند الميقات في ثياب يوم الحشر البيضاء الكل يركع مستنكراً

---

(١) سورة الفاتحة، الآيتان: ٢ ـ ٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآيتان: ٦ ـ ٨.

أفعاله التي دفعته إليها دوافع الخوف والطمع . . سائلاً المغفرة مما اقترفه في حياته من هذه الأفعال؛ فكل سجدة هي استغفار وتوبة مما ارتكبه طواعية واختياراً .

الصلاة عند الميقات هي عهد مع الله بتوحيده : فلا ركوع، ولا سجود لأحد غيره .

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

كل هذه أذكار تشير إلى القرب، لا إلى البعد .

فالله سبحانه، وإبراهيم الخليل، ومحمد الحبيب، والخلق، والدار الآخرة، والنجاة، والفوز، والتحرر، والحب . . كل منهم حاضر في الميقات . .

فأنت في ثياب إبراهيم الخالية من الألوان تُولد من جديد . .

إنك لا تُولد من جديد فقط، إنك تبعث . .

لم يعد للشيطان الرجيم ـ العاصي لأوامر الله ـ سلطان يخدعك به . .

لم تعد تحسّ بمشاعر الغربة المشرّبة بالخزي .

لقد عدت إلى الله . . وأنت الآن حر مسؤول .

* * *

# محظورات الإحرام

وأنت محرم عليك أن تجتنب عدداً من الأشياء.

يجمع هذه الأشياء المحظورة هو أنها تذكرك بتجارتك أو وظيفتك أو طبقتك الاجتماعية أو منصبك أو مكانتك أو عنصرك وحسبك..

إنها تلك الأشياء الجوهرية التي تحدّد حياتك في دنيا ما قبل الميقات.

قد نتفق أو نختلف حول بعضها، ولكن نحددها مجملة كما يأتي:

* لا تنظر إلى المرآة.. حتى لا ترى صورتك، كي تنسى ذاتك مؤقتاً.

* لا تستعمل طيباً ولا تستنشق عطراً.. حتى لا تستحضر ذكريات الأوقات الممتعة في الماضي.. إنك في بيئة جديدة تعبق

فيها الروح، ومن ثم فلا تستنشق إلاَّ المودة والحب.

* لا تصدر أوامر لأحد حتى تستشعر معنى الأخوة.

* لا تؤذي حيواناً ولا حشرة.. ولتعش في سلام متوجهاً بكليتك إلى الخالق الأعظم.

* لا تقطع ولا تقلع نباتاً ولا شجرة.. حتى تشمل رحمتك كل شيء، ولتنزع من نفسك نوازع العدوان، وتستأصل عوامل الشر.

* لا تصطاد من البر شيئاً، ولا تأكل من لحمه إذا صيد لك.. حتى تكون رحيماً بالآخرين.

* اجتنب النساء، وكل مقدمات الجماع.. ولتستلهم الحب الحقيقي.. حتى تتسامى وتكون في مستوى قداسة الموقف ومناسكه.

* لا تعقد زواجاً لك ولا لغيرك، ولا تشارك في مراسم زواج.

* لا تفسق، ولا ترفث، ولا تلعن، ولا تبغض، ولا تقسم.

* لا ترتدي المخيط من الثياب، ولتكن كل ثيابك قماشاً خالياً تماماً من المخيط.. حتى تنأى عن التمييز بين إخوانك.

* لا تغطي رأسك.. للرجال.

* لا تغطي وجهكِ.. للنساء.

* لا ترتدي حذاءً ولا جورباً . .
* تجرّد من كل أنواع الزينة .
* لا تحلق رأسك .
* لا تقلم أظافرك .
* لا تستعمل دهاناً .

لقد بدأ الحج ! . . .

سارع إلى الله . .

أنت الآن في حالة الإحرام . .

قل : لبيك . . (لقد ناداك الله تعالى، وأنت هنا تلبية لدعوته، وعليك أن تكون في أتم الطاعة له) .

لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك .

إنَّ نداء الناس : (لبيك اللهم لبيك) هو إعلان استنكار ورفض لطغيان واستغلال وخداع القوى العظمى .

إنَّ كل حاج من مكانه يخاطب الله الأعظم . .

تخيّل أيها الإنسان في هذا المقام كأنك جسيم من الحديد في مجال ممغنط . .

تخيّل كأنك في سرب من الطير الذي يضمّ الملايين وهو يصعد محلقاً في السماء عارجاً إلى الملأ الأعلى

أنت الآن تقترب من الكعبة . .

كلما ازددت قرباً ازداد خفقان قلبك، وجاشت عاطفتك، وتزلزلت أركانك. إن قلبك يخفق بشدّة تحت جدار الصدر، ويقشعرّ جلدك من هول الموقف.

إنَّ روح الله تملأ المكان، ولا تستطيع أن تحبس دموعك . .

إنه بيت الله الحرام، وأنت تحس به سبحانه أقرب إليك من حبل الوريد . . تحت جلدك وفي قلبك وفي ذهنك . . يملأ عليك حواسك؛ فتراه سبحانه على كل سطح جماد وفي كل حبة رمل . . في الوادي . . في الصحراء، لا ترى أحداً سواه . .

إنه هو وحده الموجود، وكل شيء دونه غثاء . . فقاعات.

إنه هو وحده الحق وكل ما عداه باطل . .

* * *

وبينما تمضي في رحلتك عبر مناسك الحج المختلفة، تبتعد رويداً رويداً عن نفسك . .

إنك مجبر على السير في اتجاه واحد لا تستطيع فكاكاً منه . .

إنك تتقدم إلى الأمام رغماً عنك، والكون كله يبدو كالقلب الخافق، والله تعالى يتجلى في كل أنحائه.

الآن تدخل إلى جوار الكعبة حيث أرض الحرم بكل بركاتها . .

الإحساس بالأمن يتولد داخلك بمجرد دخولك . .

لا قتال. . لا صيد. . لا قتل. . وحتى النبات لا يقطع!. . لا شيء من ذلك مباح في أرض الحرم. .

هذه الضوابط وضعت يوم فتح الرسول ﷺ مكة وخلّص الكعبة من الأصنام، ومنذئذ أرسيت هذه السنن التي تُحرّم أفعالاً معينة في تلك الأرض المقدسة.

ما إن تدخل إلى جوار الكعبة حتى يتوقف نداء التلبية، ويلف الصمت المكان. .

هذه علامة وصولك. . حيث تلقى المضيف. . صاحب البيت. . الله الرحمن الرحيم. .

الجميع في سكينة وهدوء، ولكن في قلب كل واحد يشتعل الحب. .

مدينة مكة أشبه ما يكون بسهل واسع منبسط تحيط به الجبال من كل جانب.

كل وادٍ وشارع ودرب يتوجه نحو هذا البيت العظيم، والكعبة هي المركز والقبلة. .

إنك تنظر إلى موكب متناسق ينحدر من سطح الجبال كمجاري نهر أبيض يصب في المسجد الحرام. .

ووسط هذا الخضم داخل هذا النهر تشعر كأنك قطرة. .

كلما ازددت اقتراباً من الكعبة ازداد شعورك بالعزة والفخر. .

إنك في انحدارك من الجبل باتجاه الكعبة تقترب من لقاء

الله . .

الكعبة هي القبلة، والتواضع والطاعة والانكسار والخشوع، وهي السبيل الوحيد الذي يقربك من الشرف والكرامة اللذين يوصلانك إلى العظمة . .

وهذا يعني أنه يجب عليك أن لا تبحث عنه سبحانه عن طريق الفلسفات والميتافيزيقيات (الماورائيات) .

إنَّ أمامك الطريق سهلة منبسطة عبر هذه الأرض، وفي ثنايا هذه المناسك . .

إنك تستطيع أن تراه سبحانه من خلال منهجه، وفي كل مخلوقاته التي تُسبّح بحمده . .

تذكّر دائماً أنك لكي تلقى الله لا بدَّ أن تسلك السبيل القويم، ولذلك لا بدَّ أن توطّن نفسك وتستعد لتعرف هذا السبيل! . .

إنَّ هذا المنظر السابق يذكرك بمصير الإنسان: فهو منظر يرمز لانحدار الإنسان العميق نحو الأرض (حيث يدفن) ثم ارتقائه نحو الله (عندما يبعث يوم القيامة) .

* * *

إنك لا تزال تقترب من الكعبة، والهواء عابق بالأفكار والعواطف والمشاعر والحب والصمت .

إنَّ في كل خطوةٍ تخطوها، وفي كل لحظة تمرّ عليك تزداد

رغبةً ورهبةً . . رجاءً وخوفاً . . حباً وإشفاقاً . . إن اقترابك من حضرة الله القدسية يزداد، وعيناك تتسعان، وأنت شاخص ببصرك تجاه الكعبة . .

لم تعد تستطيع أن تأخذ أنفاسك . . فؤادك ممتليء بالرجاء والحب . . شفتاك لا تنبسان بكلمة . . شعور يغمرك، وتعجب لجسدك وقلبك كيف يطيقان تحمل كل هذا؟!

عندما تنحدر وأنت قطرة وسط هذا النهر الأبيض، تشعر بنهايتك الأبدية . .

وفجأة تتجلى الكعبة أمام ناظريك . .

الكعبة التي هي قبلة كل المسلمين في صلواتهم في كل أنحاء الأرض .

الكعبة التي هي مركز وجودهم وإيمانهم وحبهم وحياتهم .

الكعبة التي هي قبلتهم حتى في لحظات الاحتضار قبل الموت .

وحتى بعد الموت حين يوجهون أجسادهم شطرها عندما يوارون الثرى . .

* * *

# الكعبة

من حجارة خشنة سوداء تقف الكعبة في نسق غاية في البساطة . .

اللون الأبيض يسّد فرجات البناء، والكعبة مكعب فارغ .

ولا شيء غير ذلك . .

لا شيء مما ترى يجعلك تعجب أو تهتزّ . .

هنا . . لا يقف أحد . .

وليس هناك شيء تتأمله . .

لا ترى سوى غرفة مكعبة فارغة . .

هل هذا كل ما هنالك؟! . .

هل هذا مركز إيمانك وحبك وحياتك وموتك؟! . .

وتتوالى الوساوس في ذهنك : أين أنا؟ . ماذا هنا؟ . .

إنَّ الذي تراه هو النقيض لما في خيالك!

ربما كنت تتصورها لوحة في فن المعمار مليئة بالزخارف..

ربما كنت تتخيلها كأحد الأضرحة التي زرتها من قبل لأحد المشاهير..

ربما.... وربما..!..

ولا محل لهذا كله من الواقع الذي تشاهده أمامك.

وبدلاً من كل هذه التخيلات، تجد أمامك ساحة منبسطة، وغرفة فارغة لا تعكس أية مهارة معمارية ولا جمال ولا فن ولا نقوش ولا جودة!!..

ثم إنه ليس هناك ضريح لأحد حتى تتوجه إليه بالنية أو بالذكريات أو بالشعور!!!..

ستعلم أنه لا شيء هناك.. ولا أحد..؛ حتى لا يعكر عليك صفو اتصالك بالله تعالى.. إن الكعبة التي تريد التحليق فوقها وحولها لتتصل (بالمنتهى) و (الأبد) و (السرمد) هي منتهى مشاعرك ومطلق غايتك..

هذه آفاق لن تستطيع أن تبلغها في عالمك النسبي المزدحم..

قد تستطيع أن تفلسف الأمور، ولكنك الآن لا تحتاج إلى ذلك، لأنك تستطيع أن ترى (المطلق) الواحد الذي لا يحده حد ولا يحصره تصور سبحانه: الله! ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ..﴾[1].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٤.

لا تحسب أن الكعبة بناء فارغ..

إنها هنا لها وظيفة العلامة والدليل والمرشد، فهي ليست نقطة النهاية، وإنما هي هنا لتدلك على الاتجاه..

إنها الزاوية التي إليها تركن، والمِعلم الذي يدلك على الطريق..

إنك تبدأ الحج حينما تقرر أن تتحرك تجاه الأبدية..

إنها حركة أبدية نحو الله لا نحو الكعبة..

فالكعبة ما هي إلاَّ بداية..

إنها المكان الذي يلتقي الله تعالى وإبراهيم الخليل ومحمد ﷺ بالناس..

إنَّ وجودك مرهون بتخلية قلبك من ذاتك وتجردك منها؛ لذا عليك أن تذوب في محيط الناس.. إنك هنا لا ترتدي لباساً خاصاً..

إنَّ الله قد جعلك من أهله «الناس عيال الله» وهو سبحانه القيوم عليهم وأولى بهم من أنفسهم..

فالكعبة «بيت الله» وفي نفس الوقت «بيت الناس»:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

لن يتسنى لك أن تبدأ رحلتك السرمدية داخل البيت الحرام حتى تتجرد من حصر اهتمامك في ذاتك..

لقد سمّي البيت بـ «العتيق» وهو عتيق لأنه يمثل التحرّر[١]..

فأرض الحرم ليست ملكاً لأحد.. إنها أرض حرة من أي رباط بالحكام والطغاة.. ولهذا لا يمكن لأحد أن يسيطر عليها..

إنَّ أرض الحرم ملك لله وحده، وما الناس إلاَّ سكانها..

لقد رُخِّص للمسلمين أن يقصروا الصلاة كلما سافروا مسافة تزيد عن الأربعين ميلاً من مقر إقامتهم، لكن في مكة.. في أرض الحرم، ودون أي اعتبار لأي مكان جئت منه أو مسافة قطعتها، تظل صلاتك كاملة لا تقصرها.

إنها أرضك وأنت آمن بها..

إنك لست ضيفاً.. إنه بيتك..

قبل مجيئك إلى مكة فأنت غريب بأرضك.. منفي بها..

ولكن الآن أنت أحد المدعوِّين للانضمام إلى أسرة الله وأهله.

إنَّ الإنسانية بأُسَرِها ـ تلك الأُسَر المشردة في هذا العالم ـ مدعوة لهذا البيت..

---

(١) من العتق: وهو للرقيق.

إنك كفرد من هذه الأسرة البشرية مستغرق في ذاتك، تشعر كأنك بلا دار.. غريب.. بلا مأوى ولا أهل..

لهذا عليك أن تنبذ كل ما يجعلك متميزاً؛ كي تذوب في المحيط البشري..

أنت الآن تتهيأ لتدخل وتنضم إلى أسرتك الجديدة..

لقد حللت أهلاً ونزلت سهلاً.. صديقاً وأخاً قريباً في أسرة الله لتصبح من (عيال الله).

إبراهيم عليه السلام أقدم وأكبر متمرد في التاريخ إنه يتجلَّى الآن..

لقد أنكر كل أصنام الأرض، وأخلص حبه وطاعته وعبادته لله وحده، وبنى بيديه الكعبة.. هذا البناء الذي هو رمز الله في الأرض..

البناء غاية في البساطة، من حجارة جبل عجون[1] السوداء حيث وضع حجر فوق الآخر دون تخطيط معماري ولا رسومات هندسية ولا نماذج وديكورات..

لكن.. لماذا المكعب؟..

ولماذا تكون بهذه البساطة دون ألوان ولا زينة؟..

ذلك لأنّ الله ليس كمثله شيء؛ فلا هيئة تمثّله، ولا لون يشبهه سبحانه..

---

(١) عجون جبال قريبة من مكة.

إنه سبحانه لا شيء من النماذج والصور التي تحصر خيال الإنسان يمكن أن يتمثّله. . إنه (الوجود الكامل) و (القدرة المحيطة) وإليه (المنتهى). .

ورغم أن الكعبة ليس لها اتجاه ـ فهي مكعبة الشكل ـ فأنت حين تستقبلها في صلاتك تكون قد اخترت التوجه إلى الله، وتستقبل وجهه الكريم.

إنَّ خلو الكعبة من أي اتجاه قد يبدو صعباً على الأفهام، لكن الكونية والنهائية ينبثقان من تلك المسألة نفسها؛ فالمكعب هو الشكل الوحيد الذي يحتوي على ستة جوانب وفي الوقت نفسه لا اتجاه له. .

الكعبة هي الأصل الذي يرمز لذلك:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

في أي مكان خارج الكعبة تصلي فيه يجب أن تستقبلها. .

كل بناء غير الكعبة له اتجاه: شمال أو جنوب. . شرق أو غرب. . فوق أو تحت. والكعبة استثناء؛ إنها تستقبل كل الوجهات دون أن تقتصر على واحد منها. .

* * *

ناحية الشرق من الكعبة يقوم جدار قصير في شكل شبه دائري. .

---

(١) سورة البقرة: الآية: ١١٥.

١٠٠ ـــــــ

الطواف يأمرك الله أن تدور حول الجدار، لا أن تشق طريقك عبر الممر، وإن فعلت فإن حجك لا يقبل..

على هؤلاء الملبين لدعوة الله المدينين بالتوحيد القاصدين بيت الله أن يطوفوا حول الكعبة بما فيها حجر إسماعيل..

لقد أضحى قبر الأَمة الإفريقية السوداء والأم الصالحة التقية جزءاً من الكعبة يطوف حوله الناس أبد الدهر..

إنَّ الله الرحمن الرحيم جلَّت قدرته أحد واحد فرد صمد، تناهت عظمته، لا يفتقر إلى أحد من خلائقه التي لا تحصى.. اختار أحدهم:

إنسان.. من أكرمهم.

من بين كل الناس: اختار من النساء.

من بين كل النساء: اختار من الإماء.

من بين كل الإماء: اختار أَمة سوداء!

أضعف خلقه وأكثرهم مسكنة وضعة هو الذي أعطاه مكاناً إلى جواره.. حجرة في بيته.

بل إن الله اختارها إلى بيته واختار جوارها، ورعى حجرتها..

والآن لا يوجد تحت سقف هذا البيت سوى الله تعالى وهاجر.

في المجتمع الإسلامي (الجنود المجهولون) لا يتم اختيارهم هكذا..

* * *

١٠٢ ـــــــ

# الطواف

كالنهر المنساب الذي يدور حول صخرة صلدة يبدو مشهد الكعبة وهو محاط بأمواج البشر المنفعلة نفوسهم. .

إنها كالشمس في المركز، والناس حولها كالأجرام التي تسبح حولها. .

مدار النظام الشمسي: الكعبة قائمة في المركز، والناس يتحركون حولها في شكل دائري. .

الكعبة ترمز لخلود الله ودوامه، بينما الحركة الدائرية تمثل النشاط الدائم والحركة المستمرة لخلائقه:

الدوام + الحركة + الانتظار = الطواف.

إنها رمزية رفيعة للنظام الكوني، للوجود القائم على قواعد التوحيد الذي سخره الله بكل ما فيه لـ : (الإنسان). .

إنَّ الله تعالى هو مركز الوجود سبحانه، وهو بؤرة هذا العالم

١٠٤ ـــــــ

وذلك يعني أن تكون: جواداً، كريماً، معطاءاً، متفانياً، ناكراً لذاتك..

وهذا يعني أن تقاسي الأسر، والنفي، وتتحمل العذاب والألم، وأن تستعد لمواجهة أخطار جمة ومواقف رهيبة..

هذا هو معنى أن تكون سالكاً لسبيل الناس الذي يقربك من الله تعالى..

لهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لكل دين رهبانية، ورهبانية الإسلام الجهاد».

* * *

أثناء طوافك لا ينبغي عليك أن تدخل الكعبة، ولا ينبغي عليك أن تتوقف في نقطة ما حولها..

عليك أن تذوب في أمواج البشر، وأن تكون قطرة في خضم النهر البشري المنساب. هذا هو السبيل الذي من خلاله تؤدي الفريضة الخامسة..

كل من أراد أن يأتي إلى هذا البيت عليه أن يذوب في مجموع المسلمين..

* * *

ما الذي يراه الناظر؟..

الكعبة قائمة هناك في المركز، والنهر الأبيض المنساب في ذهاب حولها وإياب، والكل يرتدي نفس الزي ونفس اللون..

١٠٦ ـــــــ

إنَّ الكعبة تعلمك كيف تُثبّت ذاتك وتؤكدها بالطريقة الصحيحة، وتُعبّر عن وجودك، وتصبح من الخالدين عن طريق الانعتاق من قيود الذات الذاتيَّة.

ولا يتحقق هذا إلاَّ بالمران على السخاء والعطف على الآخرين، والتفاني في سبيل الأمة. باختصار أن توقَ شحَّ نفسك، وبهدا ستكشف غطاء ذاتك، وتبصر الواقع..

حينما تجعل من حياتك رسالة وتجاهد في سبيل الله، وتصل إلى أعلى ما يصل إليه المجاهد وهو بذل دمه في هذا السبيل، ومن ثم تُسمّى (شهيداً)..

و (الشهادة) هي أن تكون حاضراً وحياً بكل ما في الحياة من سمات..

فالشهيد موجود إلى ما لا نهاية، فهو مثال (الحياة الأبدية).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1].

إنَّ سبيل الله هو سبيل الناس[2]، كلاهما واحد، ليس هناك من سبيل من الفردية إلى الله.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) كثيراً ما يحاول شريعتي الربط بين هذين السبيلين: سبيل الله وسبيل الناس. حيث يقول إنَّ الله سبحانه قد افتتح قرآنه باسم الله وختمه باسم الناس، وهنا يتضح مفهوم الخلافة ـ وراثة آدم عليه السلام عبر مرحلة في مدرسة شريعتي ـ راجع كتاب الشهادة، ط١ سنة ٢٠٠٢، دار الأمير ـ بيروت. «الناشر»

١٠٨ ـــــــ

ولماذا تفعله: يجب أن تقدم على ذلك في سبيل الله، لا في سبيل نفسك.. في سبيل الحق، لا من أجل الضرورة.

هنا كل فعل له مغزىً هام، وهذه الحركة الخالدة محكومة بضوابط دقيقة هي انعكاس لنظام الوجود كله.

* * *

١١٠ ـــــــ

كفٌ يمنى لمن؟

إنه يمين الله . .

«الحجر الأسود يمين الله في أرضه»[١] .

* * *

في الماضي كانت القبائل والأفراد تدخل في عقود مع قبائل أخرى، وكانت تلك العهود والمواثيق والعقود غالباً لحفظ سلامتهم وتأمين وجودهم والدفاع عنهم في تلك الصحراء، وكانت هذه العقود تسمى بالبيعة .

كيف كانت تتم هذه البيعة؟ . .

تتقدّم إلى رئيس القبيلة، إلى القائد، تبسط يدك اليمنى، فيمد يده اليمنى فيضعها فوق يدك اليمنى، وتكون بذلك قد أقررت له بالبيعة وتعاقدت معه . وكانت السنّة تقضي إذا بايعت أحداً فقد تخلّيت بذلك عن بيعاتك السابقة .

الآن . . . هنا . . عند الحجر الأسود . . تحين لحظة الاختيار الأكبر .

إنَّ يمين الله منبسطة إليك، واختيار هدفك وطريقك ومستقبلك قبل أن تنضم إلى الناس مرهون بمصافحة هذه اليمين . .

وهكذا تؤدي البيعة لكي تكون حليفاً لله . .

---

(١) حديث ضعيف .

١١٢ ـــــــ

عندما تقترب من الوسط فإن الجموع تشتدّ في الضغط عليك كأنما تنفخ فيك حياة جديدة. .

أنت الآن جزء من الإنسانية. . إنسان حي وخالد لا تتحرك (بذاتك) ولكن (بالآخرين). .

انضم إلى الجموع في حب بعيداً عن التصنّع والمظهرية. .

* * *

انظر إلى إله إبراهيم. . حينما جعلك من نسبه، جعلك في الحقيقة من نسب الناس، وبهذه الطريقة العميقة الرقيقة الجميلة نسبك إلى الناس بقوة الاعتصام بحبله عن طريق حبه الذي يملأ شغاف القلوب. .

ورغماً عن كونك هنا لتلقى الله، تجد نفسك في شغل بالناس. .

لقد دعاك الله وأنت في مكانك البعيد لزيارته، وعندما أتيت ملبياً، طلب منك أن تنضمّ إلى الناس.

إنك لن تدخل البيت لتحملق فيه، بل عليك أن تواصل طوافك ولتبقِ الكتف حذو الكتف مع الناس.

الكعبة لا تعدو أن تكون مركزاً للفلك الذي تدور فيه. .

لن تكون داخل الفلك إذا توقفت أو تركت موضعك أو تحركت عكس مداره. .

لا تقف ولا تذهب يميناً أو يساراً، القبلة أمامك فارم ببصرك

١١٤ ـــــــ

الحب، ثم تخرج نظيفاً طاهراً بلا ذنوب، تخطو نحو مقام إبراهيم..

اختصاراً: يمكن القول إنَّ الكعبة هي محور الحب، في حين أنك البوصلة التي تدور حول محورها..

ما الذي أعرفه أنا؟.. هذا هو فهمي فقط، ولكنها ليست كل المعاني..

❊ ❊ ❊

**هاجر هي مثال الإنسانية:**

لقد أمرها الله (الرحمن الرحيم) أن تترك بيتها ومعها طفلها الرضيع، وجاءها الأمر بالذهاب إلى ذلك الوادي المخيف في مكة، حيث لا زرع ولا حتى نبات شوكي يمكن أن ينمو.

لكن حب الله تعالى يدفعها لأن تطيع أوامره..

الأمر يبدو غريباً! امرأة ليس معها سوى طفل، تضرب في عمق هذا الوادي الموحش ووسط البراكين الخامدة، دون ماء وبلا مأوى وليس معها أحد!!

لكن لماذا كل ذلك؟!

إنَّ الله يريد منّا أن نُخلِصَ التوكّل عليه سبحانه..

هذا المنطق ليس مفهوماً بمعايير حكمتنا..

بل إنه يبدو غير منطقي!!..

١١٦ ـــــــ

# مقام إبراهيم

بنهاية الشوط السابع تنتهي مرحلة الطواف . .

لماذا سبعة أشواط؟! . .

نعم . . إن سبعة هنا لا تعني ذلك المعنى البسيط : الرقم الذي يساوي ستة مضافاً إليه واحد، ولكنه يذكرك بطبقات السماوات السبع . .

الطواف هو معراج، ولكنه معراج من أجل الناس، والحركة الأبدية في سبيل الخير العام . .

إنه حج وليس مجرد زيارة دينية . .

إنه تظاهرة أصيلة للوجود . .

إنه ترجمة لعقيدة التوحيد، وتفسير صادق لها . .

* * *

عند مقام إبراهيم مصلى . . عليك أن تصلي ركعتين . .

١١٨ ـــــــ

أنت جُسيم عاطل لا فائدة منه!

والله يوبخك: لقد كنت (صلصال كالفخار) و (حمأ مسنون) و (تراب)..

لكنك الآن حيٌ متحرك، تنتقل راجلاً وراكباً وطائراً..

لم تعد راكداً ولا متعفناً ولا كماً مهملاً.

إنك الآن تزمجر، وتزيل الصخور، وتحطم السدود، وتنسق طريقك عارجاً إلى بستان السماوات في وسط هذا الصحراء.

ها أنت الآن تتدفق مع النهر الأبيض، وتروي الأرض وتسقي المزارع من نباتات وورود، وفي الوقت نفسه تبذر في التربة آلاف البذور حيث ينبت منها آلاف البراعم التي لا تلبث أن تزهر وتمتد عبر التربة، وتشق الأرض صاعدة نحو السماء، سامقة باسقة بأوراقها وثمارها..

أما إذا لم تتحرك فستغدو كالتراث الموروث، وكالتميمة التي يتبرك بها، ثم تصير جافاً قاسياً، وقد يؤول الأمر إلى تشوّهك ثم مسخك، وفي الوقت ذاته ستتحطم كل هذه الإمكانات وتدفن..

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

أثناء تدفق النهر فإنه يهب الحياة للطبيعة الميتة، كما كان

---

(١) سورة الشمس، الآيات: ٧ ـ ١٠.

١٢٠ ـــــــ

تحت يمين الله، وبعد أن تتجاوز ذاتك بالخروج عن نوازعها وقضائك على الأثرة والأنانية والخصاصة في نفسك. . عندئذ تكتشف ذاتك الحقيقية وأنت ترتدي رداء الإحرام الأبيض الناصع في بيت الله، وتقف وأمامك مقام إبراهيم، وقد وضعت خطوك حيث كان إبراهيم يرفع القواعد.

وجهاً لوجه مع الله. . فابدأ صلاتك.

* * *

يحفظ تاريخ البشرية لإبراهيم عليه السلام أنه أعظم متمرّد وقف ضد الصنمية والوثنية، وأسس دعوة التوحيد في الأرض. .

ورغم بدنه الذي أنهكته المعاناة والبلاء فقد كان ذا ذهن حاد وقلب مليء بالحب، إلى جانب أنه كان يحمل فأساً في يده!!. . إنه بحق نبي المسؤولية والإمامة.

فيه قد أشرق الإيمان في معقل الكفر، وتفجر نبع التوحيد من بين أصنام مادية ومعنوية. .

إنَّ أول معركة لإبراهيم ضد الوثنية كانت في بيت (آزر) صانع الأصنام لقومه!

لم يقتصر إبراهيم على محاربة الأصنام والنمرود فقط، ولكنه كان يحارب معها الجهل والطغيان. .

كان متمرّداً على الرذائل. . رجل دعوة ورسالة وإيمان وعقيدة. .

٢٢٤ ـــــــ

إنهم أولئك المؤمنون الذين يُضحّى بهم على أعتاب قصور السلطان، أو بالقرب من خزائن أصحاب الأموال الحرام، أو داخل مؤسسات الطغاة الدينية المتّصفة بالخزي والنفاق..

شجاعتك في أن تنزع السيف من أيدي القتلة، وتمسك به.

انحر عنق إسماعيل، والله (ربك) سيفتديه.

هل ستقتله حقا؟! كلا لن تقتل ابنك ولن تفقده، ولكنك صرت أُمة..

إنَّ هذه معارج الإيمان، وكان لا بدَّ أن تصل إلى مرتبة التضحية بأحب ما عندك وبيديك.. **فالتضحية أشدّ إيلاما من الاستشهاد**.

* * *

تذكر أنك انتهيت لتوّك من الطواف ـ طواف الحب ـ وتقف الآن في مقام إبراهيم..

عندما وصل إبراهيم إلى هذا المقام كان قد قطع حياة مليئة بالجهاد والكفاح ضد النمرود والأصنام، وواجه الموت محترقاً في النار، وواجه كيد الشيطان، وضحّى بابنه الوحيد إسماعيل، ومن قبل ذلك ومعه: كانت الهجرة والتشرّد والوحدة..

انظر إلى النقلة البعيدة: فبعد أن كان عاملاً في بيت آزر صانع الأصنام، أصبح عاملاً في بيت الله يبني الكعبة قلعة التوحيد!!

هنا ـ في هذا المقام ـ وقف إبراهيم مخلفاً وراءه سنوات

١٢٤ ـــــــ

إنَّ إبراهيم هو قائد جيش الجهاد ضد الجهل والكفر..

إنه ضمير الحب والمسؤولية.

ومع ذلك، فقد هرب من إغواء الشيطان الذي يوسوس بأفكار الشرّ في صدور الناس:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾[1].

بعد كل تلك الابتلاءات، وكل المعاناة التي تنوء بحملها الجبال الرواسي، وبعد كل ما تعرّض له من تعذيب، وبعد كل ما قدّم من تضحيات كادت تودي بحياته عليه السلام.. بنى البيت..

**لم يبنه لنفسه ولا لولده**، ولكن: بيت للناس.. من أجل الناس..

إنه مأوى لكل الذين لا مأوى لهم..

إنه سقف وسماء لكل الذين أُخرجوا من ديارهم..

إنه ملاذ للذين جرحوا في هذه الأرض، وملجأ للذين شُرِّدوا وهُجِّروا في سبيل دعوة إبراهيم، إنه مصباح يضيء في ظلام الطغيان الذي يعانيه من اتخذوا إبراهيم أسوة لهم، والذي عاناه إبراهيم قبلهم.

لقد امتلأت قلوب الناس ونفوسهم بالخجل والوجل

---

(١) سورة الناس، الآيتان: ٥ ـ ٦.

١٢٦ ـــــــ

بعد رجوعك من الطواف، وبعد أن نشرّبت نفسك معانيه وإلهاماته، وأنت قطرة ذائبة في نهر الناس، وبعد مقامك في إبراهيم، في مكان بنائه للبيت ليكون مثابة للناس وأمناً، وبعد عهدك مع الله تعالى أن تكون إبراهيم في مجتمعك.

بعد كل هذا وما سبقه عليك:

**أولاً**: أن تجعل أرضك آمنة كأنك في أرض الحرم.. إبدأ بنفسك وادعُ غيرك.

**ثانياً**: أن تجعل عهدك كعهد إبراهيم الخليل. وحالك كحال إبراهيم.. انتصاراً للإيمان والتوحيد..

**ثالثاً**: أن تجعل من كل أرض تكون فيها مسجداً حراماً؛ وذلك لأن الله جعل الأرض كلها مسجداً وطهوراً..

إنَّ الأرض كلها لله.. أليس كذلك؟!

* * *

١٢٨ ـــــــ

وفي مقام إبراهيم كنت تقوم مقام إبراهيم وإسماعيل.

عندما تبدأ السعي فأنت تفعل كهاجر مرة أخرى..

## هنا مظاهر صادقة للوحدانية:

الأشكال والأنماط والألوان والدرجات والشخوص والحدود والمميزات والمسافات قد حطمت، كل ما في المشهد الذي أمامك الآن رجل عارٍ وإنسانية مجرّدة.. لا شيء سوى الإيمان..

المعتقد والحركة في سمو وارتفاع.

هنا لا يرد ذكر أحد، وحتى إبراهيم وإسماعيل وهاجر هي أسماء وكلمات ورموز فقط..

كل الموجودات الآن في تحرّك منضبط..

أي أن الإنسانية والروحانية متجرّدتان، والمناخ الذي يحيط بهما ويملأ الأثير بينهما هو النظام..

هذا هو الحج: قرار بالحركة الأبدية في اتجاه محدد.

وهذا هو نفسه طريق حركة الكون المحسوبة بحساب دقيق..

* * *

هنا في السعي ستلعب دور هاجر.. امرأة!

امرأة مسكينة، وأمَة اثيوبية مستضعفة، وخادمة لسارة..

هذه كل مؤهلاتها.. هذا في النظام الاجتماعي البشري (نظام الشرك)..

١٣٠ ـــــــ

لقد عزمت على الاعتماد على نفسها، تجري بقدميها، وتستخدم إرادتها وعقلها اللذين وهبهما لها خالقها.

إنَّ هاجر لامرأة مسؤولة، وأم محبة، ووحيدة تجول وتلهث باحثة عن الماء.. محتملة الألم والفزع.. مجردة من أي دعم.. لا مأوى لها ولا بيت.. معزولة بلا مجتمع.. بلا طبقة.. بلا جنس.. بلا توقع!

لكنها رغم كل تلك العوامل التي تدفع لليأس وتحقق الإخفاق في المسعى، كانت هاجر مليئة بالأمل!

خادمة.. وحيدة.. ضحية.. غريبة.. منبوذة.. مرفوضة.. مكروهة من النظام الطبقي والأعراف والأسرة.

هذه الأَمَة السوداء وحدها وطفلها على يديها! بعيدة عن بلدها، وعن بلاد الجنس الممتاز.. تجول في الصحراء غريبة كالمسجونة في شعاب هذه الجبال.

كل هذا وهي وحدها! لا تعرف الراحة.. ولكنها ـ رغم كل هذا ـ مليئة بالأمل والعزم في بحثها عن الماء، تغدو وتروح من مكان لآخر..

كل ذلك وحدها!.. تجري على قدميها إلى قمم تلك الجبال تبحث عن الماء..

لم تكتف بالجلوس والنواح، مسلوبة الإرادة.

إبراهيم أسوتها.. وهذا إحياء لسُنّته..

١٣٢ ـــــــ

السعي هو عمل مادي . .

السعي هو أن تستفرغ جهدك وتبذل طاقتك في سبيل الماء والخبز، حتى تشبع حاجتك وتطعم صغارك الجوعى، وهو الطريق نحو حياة أفضل.

إبنك ظمآن وينتظرك في هذه الصحراء الجافة، وواجبك أن تعثر على منبع تأتيه منه بالماء. السعي هو كفاح وبحث من أجل حاجتك من قلب هذه الطبيعة، ومحاولة لاستخراج الماء من الحجر . .

السعي حركة مادية وحاجة مادية وهدف مادي وفعل مادي!

الاقتصاد هو الطبيعة والعمل.

الحاجة هي الطبيعة والإنسان . .

❊ ❊ ❊

يا للدهشة . .

بحساب المسافة فالأمر لا يعدو أن يكون خطوات أو لحيظات معدودة من الطواف إلى السعي، لكن البون[١] بينهما شاسع . .

الطواف : الحب المطلق . .

السعي : الحكمة المطلقة . .

---

(١) البون: المسافة بين شيئين.

١٣٤ ـــــــ

وخلاصة كل ذلك: هو كل ما يجعل الروح الإسلامية تتحرك..

السعي: الحكمة.. المنطق.. الحاجة.. الحياة الدنيا.. الحقائق.. الأهداف.. المادة.. الامتيازات.. التفكير.. العلم.. الصناعة.. السياسة.. الفائدة.. اللذة.. الاقتصاد.. المدنية.. الجسد.. الحرية.. الإرادة.. السيادة (أي السعي من أجل الذات في الأرض)..

وخلاصة كل ذلك: هو كل ما يسعى في سبيله الماديون..

الطواف: الله وحده.

السعي: الإنسان وحده..

الطواف: الروح ولا شيء غير الروح..

السعي: الجسد فقط..

الطواف: معاناة الوجود، والإشفاق من الدار الآخرة..

السعي: لذة الحياة، والمعاناة في هذا العالم..

الطواف: السعي من أجل الظمأ..

السعي: البحث من أجل الرِيّ..

الطواف: الفَرَاش..

السعي: النسر..

❊ ❊ ❊

١٣٦ ـــــــ

## ذلك هو الطواف..

لكن على غير ما يفعله من يسمّون بالصالحين والعابدين!! لم تجلس ساكنة بالقرب من ولدها.. لم تنتظر حدوث معجزة.. لم تتوقع يداً خفية تجلب لها فاكهة من السماء، أو تشق لها نهراً يروي ظمأها.

كلا! لقد تركت وليدها في يد الحب.. يد الرحمة، وطفقت تجري في الحال..

لقد قررت أن تجري في الحال بين الجبال الصمّاء.. في جبال مكة توجد إمرأة.. وحدها.. عطشى.. مسؤولة.. غريبة، تتجول في بحث لا طائل وراءه عن الماء!..

يا الله!..

هل نحن نتحدث عن هاجر أم عن الإنسان؟!

لقد أجهدت نفسها دون جدوى، وعادت يائسة إلى ابنها..

يا للدهشة!!.. ما هذا؟!!

الطفل الذي تركته تحت مظلة الرحمة في حالة من العطش والإجهاد، تدفق الماء من بين الرمال تحت قدميه!

في اللحظة التي بلغت فيها منتهى اليأس، ومن مكان لم تكن تتوقعه.. فجأة دون مقدمات ظهر الماء هناك..

إنها المعجزة.. قوة الحاجة.

١٣٨ ـــــــ

إنها المسار بين الصفا والمروة.

* * *

أثناء السعي أنت تكرر حركة المجيء والذهاب سبع مرات..

الرقم (٧) رقم مفرد وليس مزدوجاً، ولهذا فإنّ سعيك سينتهي عند المروة وليس في المكان الذي بدأت منه..

سبع مرات! سبعة.. رقم رمزي يمثل الدوام، فكل حياتك للمروة!

إبدأ بالصفا التي تعني الحب الخالص للناس، ونقطة وصولك ستكون المروة التي تعني مُثُل وقيم الإنسان، وسبب تكريمه وسخائه وعفوه عن الآخرين..

من هم الآخرون؟.

الآخرون هم الذين يحاولون معك..

* * *

أنت أيها الإنسان غريب.. مشرّد.. منفي عن الأرض.. إحساس بالمسؤولية يحثك أن تبحث عن الماء في السراب.. إمضِ إلى الصفا كما فعلت هاجر، وانظر إلى الطوفان الأبيض من الناس يحاول.. اهبط مسرعاً من الصفا بلا راحة وفي حالة من العطش.. إنهم يحاولون البحث عن الماء في هذه الصحراء الحارة المجدبة، ثم يواصلون السعي من قمة المروة ولا يجدون الماء.. لقد جفت الشفاه والأيدي خالية والنظرة حسيرة، يعودون مرة ثانية إلى الصفا ويبدأون البحث..

١٤٠ ـــــــ

# التقصير

في نقطة النهاية من سعيك عند المروة قصّ شعرك وقلم أظافرك واخلع ثياب الإحرام وارتد ثيابك المعتادة[١] . . استشعر الحرية، وبيدك الخالية وفي حالة من الظمأ اذهب لتلقى إسماعيلك.

إصغ جيداً! ألا تسمع خرير الماء من هنا؟ أنظر طيور عطشى تُحلّق فوق هذه الصخور المقفرة! زمزم قد روت ظمأ إسماعيل. .

قبيلة أجنبية من أرض نائية توطنت في هذا الوادي القفر. .

عطاشى الأرض من الناس تحلقوا حول زمزم. .

مدينة الحجر قامت في هذه الصحراء العطشى اليابسة. .

هنا تدفق وابل الوحي، وقام البيت العتيق، بيت الحرية والحب! . .

* * *

(١) راجع الفقرة الواردة آخر هذا الفصل بعنوان «ملحوظة».

١٤٢ ـــــــ

وتضلّع، واغسل وجهك، واحمل بعض الماء معك إلى ديارك عسى أن تهديها لقومك.

* * *

**ملحوظة**: كل ما ورد في الفصول السابقة متعلق بجزء من الحج أو العمرة (حج التمتع) وبالنسبة للعمرة يتاح للمسلم أن يقوم بها في أي وقت خلال العام ما عدا أيام الثامن والتاسع والعاشر من ذي الحجة لأنها أيام الحج الأكبر الذي سنبحثه في الفصول الآتية..

* * *

١٤٤ ـــــــ

إذن لماذا تغادر الكعبة؟!

لأنك ذاهب لتبدأ الحج الأكبر..

* * *

إنَّ قرار الذهاب لمكة ليس هو غاية الحج النهائية، ولا حتى الوصول إلى الكعبة قبلة الناس كما يتبادر إلى الذهن عن خطأ وسوء فهم.

إمام التوحيد إبراهيم عليه السلام يعلّمك أن الحج لا ينتهي في الكعبة، ولكنه يبدأ في اللحظة التي تغادر فيها الكعبة.

هي ليست نقطة الوصول، ولكنها نقطة المغادرة..

أنت ما زلت في الكعبة، ويجب أن تكون مستوعباً، ومتجاوزاً رغباتك الشخصية، وأن تهزم عبادة الذات، غادر حدودك، واكتشف نفسك..

أنت أيها المهاجر إنك ذاهب لترى الله[1]، ومن الآن فصاعداً ستمضي في طريق مختلف وستدخل أرضاً جديدة..

في الميقات والعمرة كان عليك أن تترك بيتك، ولكنك الآن ستترك بيت الله!!

* * *

عندما تشرف على التسليم الكامل، وفي ذروة تحرّرك من

---

(١) بالمعنى الوجداني للكلمة.

١٤٦ ـــــــ

لا تتوقفوا عند المسجد الحرام ساكنين عنده . .

إنَّ الله قد ولَّى وجهك نحو القبلة حتى لا تضلّ بالقِبلات الأخرى .

الكعبة هي وجهتك وهدفك وقبلتك، لكن عليك وأنت في مكة أن تتجه إلى مكان آخر تذهب إليه هناك ثم تأتي إلى مكة[١] .

هكذا تغادر مكة ـ دون أية تحفظات ـ مرتدياً ثياب الإحرام . . معطياً ظهرك للكعبة، متجهاً إلى مكان شديد القداسة . . تُرى أي مكان هو؟ واصل تحركك وسترى . .

* * *

(١) المقصود الخروج لمواقيت الإحرام للحج الأكبر بعد التقصير من إحرام العمرة وهو حج التمتع كما سبق بيانه .

١٤٨ ـــــــ

فهي لا تعدو أن تكون طريقاً ضيقاً طويلاً يمضي خمسة عشر ميلاً ويتصل بوادي مكة..

على طول هذا الطريق لا تجد أي أثر تاريخي أو طبيعي أو ديني، ولا حتى علامة تفصل بين هذه الأماكن.. فأنت الذي تحدّد الحدود بينها حسب مراحل حركتك المفروضة عليك والواجبات المنوط بك أداؤها..

ففي (منى) عليك أن تبقى يومي الحادي عشر والثاني عشر، وهما اليومان اللذان يعقبان يوم الأضحية (اليوم العاشر) رغم أنك ـ على الأغلب ـ ستقدّم أضحيتك وترمي الشيطان قبيل ظهر اليوم العاشر، لكن مع ذلك عليك أن تبقى في منى..

كما تعلم.. إنك لا تبقى لتقيم، ولكن لتقف وقفة قصيرة على طريقك.. تقف مع القافلة حيث تقف، وتسير معها حيث تسير..

هناك معنى آخر يجعل (الوقوف) في هذه (الفصول) الثلاثة أكبر من مجرد البقاء نهار اليوم التاسع، أو جمع سبعين حصاة من المشعر الحرام.

صحيح أن في كل فصل هناك وقفة قصيرة، ثم تمضي إلى الفصل التالي، وصحيح أن (منى) هي المرحلة الثالثة وستبقى فيها ثلاثة أيام، ولكن عليك أن تتذكر أنها ليست نقطة الوصول..

إذاً أين ستنتهي هذه الرحلة؟!.. أين خاتمة المطاف التي ستصل إليها هذه القافلة؟

١٥٠ ـــــــ

وحركة قادمة (راجعة). .

هناك دائماً حركة باتجاه شيء (إليه)، وليس (فيه)، وهذا هو الذي يجعل الحج حركة مطلقة.

إنَّ الحج ليس pélérinage[١]؛ لأن كل pélérin[٢] له نقطة وصول، والحج ليس مجرد رحلة؛ إنّ كل رحلة لها نقطة وصول. . الحج هو غاية مطلقة وحركة خارجية تلقاء هذه الغاية. وهذه الغاية ليست نقطة يمكن أن ينتهي إليها الإنسان، ولكن يحاول التقرّب إليها. .

ولهذا فعند قدومك من عرفة تبقى في (منى) خلف جدار البيت وليس داخل البيت، وهذا هو معنى التقرب إلى الغاية، وليس الوصول إليها. .

في طريق الرجوع إلى الله هناك ثلاث مراسي: عرفة، المشعر، منى. لا بدَّ أن ترسو عند كل منها. .

إنها ليست مجرد ثلاثة أماكن تقوم بزيارتها. .

عليك أن تعي تماماً ما المقصود بكل وقفة من هذه الوقفات الثلاث. .

---

(١) تعني في اللغات اللاتينية زيارة الأماكن المقدسة أو زيارة دينية، وتستعمل في معظم الأحيان مقابلاً لكملة حج في الإسلام، ولكنها لا تعبّر عن المعنى كما يوضح المؤلف في ما يأتي.

(٢) تترجم بمعنى حاج أو زائر للأماكن المقدسة، ولا تعبّر أيضاً عن معنى الحاج لدى المسلمين.

١٥٢ ـــــــ

يوسوس له؛ فكما أن الله يلهم الصالحين والفاجرين بين الناس بالخير، فإن إبليس يوسوس لهم حتى يتعدّوا حدود الله فيعصونه ويأكلون من (الفاكهة المحرمة)..

وهكذا وسوس إبليس لآدم بأنه لو فعل ذلك، وأكل من الشجرة، فإنه سيحيا حياة أطول وأكثر إشراقاً.

رفض آدم في أول الأمر أن يأكل من الفاكهة المحرمة، لكن الشيطان استطاع أن يغوي حواء، عندها غوى آدم بعد أن وافقها وأكلا من الشجرة..

إنَّ آدم يمثّل الحكمة، وحواء تمثّل الحب، والحكمة والحب هما مكوّنات الإنسان من بني آدم..

آدم هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يقترف المعاصي ويتوب عنها..

إنها الحرية والاختيار بين الطاعة والمعصية..

إنها المقدرة على اتخاذ القرارات..

إنَّ هذا الأمر يتوافق مع مفهوم «المسؤولية» و «الوعي».

ونتيجة للمعصية فقد استبدلت حالة الرضا والمتعة والراحة بأرض «الحاجة والطمع والألم..» أو بالتعبير القرآني: «الهبوط».

فكانت بداية حياة جديدة للفرد ذو الوعي والمسؤولية صاحب المعصية: آدم..

كان آدم ضحية الألم والحاجة والطمع، كان يعيش منفياً

١٥٤ ـــــــ

ثم كان أول شعاع للحب عندما التقى آدم بحواء، وهما يرتقيان في الفهم المتبادل كل منهما للآخر..

كانت تلك علاقة تعارف جنس على جنس آخر من نفس الفصيلة! من نفس الأصل هكذا ـ من وجهة نظر فلسفية ـ نعلم أن وجود الإنسان معاصر لوجود المعرفة..

ومن وجهة نظر علمية فإن تاريخ الإنسان يبدأ بالمعرفة..

يا للغرابة!..

في الحج تبدأ الخطوة الأولى من عرفات (الوقوف بعرفة).. زمنه نهاراً. ويبدأ مع ظهر اليوم التاسع.. وقت الزوال حيث الشمس أسطع ما تكون.

والملاحظ اختيار هذه الفترة بالذات حتى تكتسب الوعي والبصيرة والحرية والمعرفة والرحمة في ضوء الشمس!.

عند مغرب الشمس ينتهي الوقوف بعرفة.. عندها تبدأ العتمة حيث لا يُرى شيء فيها، فتزول سطوة المعرفة والموجودات.

مع نزول الشمس في سهل عرفات ينزح الناس نحو المغرب مع حركة الشمس..

إنهم يواصلون المسير حتى المشعر الحرام، إنها أرض (الشعور) حيث يكون لهم وقفة أيضاً..

إنَّ المرحلة التي تلي المعرفة هي الشعور..

يا للغرابة!..

١٥٦ ـــــــ

الأمر مجرد مادية غليظة وحياة علمية جافة ذات حضارة بلا روح، وتقدم بلا هدف.

ولو كان المشعر الحرام (الشعور) ومنى (الحب) وحدهما دون وجود عرفة (المعرفة) لكان الأمر كحال المسلمين الراهن من الفهم لإيمانهم القاصر على المشعر (الشعور) ومنى (الحب) دون وجود لعرفة (المعرفة)..

لكن في دين الإسلام حيث الإنسان المخلوق من حمإ مسنون ونفخة روحية ربانية، وقد امتلك السلطان عندما أصبح محل أمانة الله، واستهلّ عمله بالمعرفة، وأدرك حقائق هذا العالم بطرق علمية موضوعية، وأعقب ذلك اكتسابه للشعور، ثم تمكن أخيراً من خلق (الحب).

هذه المراحل الثلاث من عرفات إلى المشعر، ثم إلى حيث يرتقي إلى ذروة الكمال الإنساني في العروج إلى الله عند سدرة المنتهى (منى).

الواقعية؟!

نعم.. كأساس لا كهدف..

هي الأساس الذي تبدأ منه كفاحك في سبيل المثال والغيب..

فالواقعية ضرورية كأساس ما دام الإنسان ـ وفقاً لعقيدة الإسلام ـ بعضه من طين الأرض وبعضه من روح الله العلوية..

١٥٨ ـــــــ

إليه بحاجاتك وأمانيك وحبك وبغضك وما تقترحه لنفسك وما ترجوه للآخرين. .

**الذكر**: أن تبقيه في ذهنك وأن تتفكر. .

**الحج**: الإرادة والقرار.

* * *

الآن وصلت إلى (عرفة) وهي المسافة الأبعد من مكة حيث يمتدّ سهل جاف تغطيه الرمال الناعمة. . في الوسط يمكنك رؤية جبل الرحمة وهي ربوة صخرية صغيرة حيث وقف النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وخاطب الأمة بوصيته الأخيرة (خطبة الوداع).

إنَّ عرفات لمدينة عجيبة حقاً! تزورها لمدة يوم واحد، ثم تذهب المدينة مع الريح بعد الغروب.

هنا تزول الفواصل والحدود لتتّحد الأمة التي لا تقوم على التعصب لجنس ولا لعرق، إنما على الإنسانية العالمية؛ حيث ينخفض التمايز إلى الحد الأدنى وسط مجموعات تمثّل العالم كله في هذا السهل تحت الخيام البيضاء الممتدة من الأفق إلى الأفق، وحيث الأرستقراطية هي منتهى الضعة، والجمال المصطنع قبح.

* * *

إنك قد تسأل نفسك: ما الذي يفترض أن أراه هنا؟! ما الذي ينبغي أن أنجزه؟!

١٦٠ ـــــــ

## لا تكن دمية..

إنَّ جوهر المطلوب منك ليس هو بروزك للشمس ـ فلك أن تقضي هذا اليوم كما تحب ـ إنما المطلوب فقط هو الوقوف، ثم أترك سهل عرفات بعد غروب شمسه.

* * *

١٦٢ ـــــــ

وقفة؟ . . لا سكن؟ . . لا استقرار؟

نعم . . لا مكان! . . وقفة لنصف يوم، هذا كل ما هنالك . . الخيام التي نصبتها البارحة يجب أن تطوى كلها اليوم . .

لقد وصلت إليك الرسالة :

أيها الإنسان إنك ستعيش على هذه الأرض فترة قصيرة . .

أيها الإنسان إنك مجرد لحظة في عمر الحركة الأبدية . . إنك فانٍ .

أيها الموجة[١] إن وجودك يتوقف على حركتك، وأنت ميت إذا كنت سلبياً .

في الفناء ستكون كاملاً إذا كان قرارك مطلقاً . .

أيها القطرة تدحرج إلى النهر البشري الفياض وتدفق . .

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[٢] .

* * *

عليك أن تكون عند المشعر مع حلول الظلام .

الناس يتزاحمون مجتمعين وهم يفيضون من عرفات تجاه الوادي في طريقهم إلى منى ثم إلى مكة . .

---

(١) يقصد أن مجموع البشر موجات بحر متلاحقة .

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨ .

١٦٤ ـــــــ

أيها الإنسان! إنَّ الله ينتظرك في نهاية الطريق، تذكّر أنك في المشعر الحرام (أرض الانتباه والشعور)..

* * *

يا لها من دقة!..

عرفات أو رمز المعرفة استعملت بصيغة الجمع (عرفات من عَرَفَ) لكن المشعر وردت بصيغة المفرد.. إنه يريد أن يقول إن الوقائع يمكن صياغتها ووصفها بطرق متنوعة، لكن الحق متفرّد يتمثل في طريق واحد ووحيد هو طريق الناس وفي سبيل الله..

هذا ما يتجلّى في مجلسه ﷺ مع أصحابه على الأرض، يصوّر ذلك لهم برسم خط واحد مستقيم، وبجواره خطوط متعرجة متعددة على الأرض بعصاه.. يظهر بذلك طرقاً عديدة للكشف عن وجود العلاقات بين الظواهر (أو طرق المعرفة والتعليم)[1].

إنَّ العلوم والمعارف هي كشف لظواهر موجودة فعلاً، وعرفات أشبه بمرآة تعكس كل الألوان والملامح والأشكال والهياكل بدون أي تغيير، ولكن بحجم مضاعف لتبدو الصورة أكثر وضوحاً..

---

(١) نص الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: خط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وعن شماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها واحد إلاّ عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٥٣. رواه جماعة، منهم: أحمد والنسائي والحاكم.

١٦٦ ـــــــ

والفقهاء الموقرون لدى السلاطين لهم من المعرفة بالدين مثل ما للعلماء الذين يضعهم الحكام في السجون. .

إذاً. . ما الذي يجعل واحداً من الناس (جلاداً) ويجعل من الآخر (شهيداً)؟ .

وما الذي يجعل من أحدهم (طاغية) ويجعل من الآخر (عادلاً رحيماً)؟

وما الذي يجعل من أحدهم (فاسداً) ويجعل من الآخر (صالحاً)؟! .

ليست المعرفة هي التي تفعل ذلك، ولكنه الشعور. . نعم الشعور.

* * *

إنَّ التساؤل عن أنواع المعارف والعلوم لا يتصل بموضوعنا، أما الشيء المهم لدينا هنا فهو (الشعور). .

إنَّ الحج يفصّل ذلك في منتهى الدقة حينما يحدّده بـ «الشعور الحرام». . أي الذي تحميه القداسة أو الطهارة أو العفة أو التقوى. .

الطور الأول: «عرفات» كلمة واحدة بلا إضافة، لكن الطور الثاني ليس هو المشعر فقط، ولكن: «المشعر الحرام».

ومما يثير الدهشة أن الوقوف بالمشعر الحرام يكون ليلاً، بينما وقفة عرفة تتمّ أثناء ساعات النهار. . لماذا؟!

١٦٨ ـــــــ

فـ «الشعور» هو منزلة بين «العلم» و «الإيمان». . بين «عرفات» و «منى».

إنَّ البصيرة لا تحتاج إلى ضوء النهار، بل تزداد وضوحاً بالفكر في هدوء الليل حيث تحلّ كل ما يلتبس عليك من أمر «الحب».

* * *

الحكمة هي نمط المعرفة أو النظر الذكي، وهو يأتي للإنسان عن طريق الرسل لا عن طريق العلماء والفلاسفة، وهي المعرفة والوعي الذاتي الناطق باسم الإسلام، وليس ما تجده لدى دارس مدرب، ولكنه وعي المفكر المسؤول.

إنها ليست العلاقة الباطنية بين الظواهر والقوانين (النواميس) بل هي نور مبين. .

إنها ذلك النوع من المعرفة الذي أشار إليه النبي ﷺ : «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء».

إنها المعرفة التي يهبها المرشد الحقيقي من لدنه. .

إنَّ أي شخص يمكنه أن يكتسب معرفة «عرفات» لكن الإدراك والوعي الذي يمنحه «المشعر» هو النور الذي يقذفه الله في قلب من يشاء! . .

من هم أولئك؟!

إنهم ليسوا الذين يعملون بدافع الأنانية، لكنهم الذين

١٧٠ ـــــــ

كم هو محرك للعواطف أن تبحث عن «السلاح»[١] في أرض الظلمة. . أرض الإحساس والشعور. .

لماذا لا ننتظر حتى الصباح؟ ومن أجل من يكون الجهاد؟. .

إنَّ الوقفة في المشعر الحرام من أجل أن تفكر وتخطط وتُقوي عزيمتك. . من أجل أن تجمع أسلحتك وتهيّىء نفسك لميدان القتال. .

في ليلة الجهاد يجب أن تقوم بكل ذلك تحت جنح الظلام، ومن كمين خفي تنطلق إلى منى ففيها (دولة الطغيان). .

عليك أن تجمع أسلحتك في ظلمة الليل مستعيناً بنور الإحساس والشعور. . الإحساس المقدس الطاهر. . المشعر الحرام، وبالمعرفة التي اكتسبتها في نور عرفات. .

عليك أن تنتظر الليل كله. . حتى تشرق الشمس، وترى نور الفجر والنصر والحب في منى.

ها هو الجيش العرمرم المزمجر الذي لا يعرف الراحة قد جمع الجمرات من أرض المشعر الصخرية، وها هو قد وقف على حدود منى والصمت مطبق على المكان، والكل متطلع إلى صحراء الحشر. . هذا الجمع الكبير. . كل القوافل والقبائل اجتمعت هنا. . إنه كيوم الحشر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[٢].

---

(١) يشير المؤلف إلى جمع حصى الجمرات من أرض المشعر الحرام.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٣٤ ـ ٣٦.

١٧٢ ـــــــ

لا تضيع وقتك في البحث عن الأصدقاء أو عن القافلة. .
فهنا كل منكم وحده. . هنا يبقى اثنان منكم معاً: أنت والليل!

إنك تشعر بالوحدة ضمن هذه الفردية المطلقة للبشر المسؤولين، ولا أحد يعرف الآخر، لكن لا تخف فالليل يغطيك مظهره. .

لا أحد ينظر إليك، ولا أحد يناديك بما تعودت أن تنادى به من قبل، حرّر نفسك وأتركها بين أيادي الليل: ماذا تراني أقول؟!. .

لقد غطى ليل المشعر الحرام الآفاق، وبدا كأنه شاشة من السماء. .

في هذا السكون غابة من النخيل يغمرها ضوء القمر. .

دع عينيك تبحثان، وقلبك الذي لا يعرف الراحة تحت وابل بحثهما يخفق ويرفرف كالفراش الولهان، ثم استشعر من عمق قلبك معنى أن تكون وحيداً في عمق هذه الصحراء الموحشة التي حكم عليك بالعيش فيها.

في عمق هذا الصمت الجليل يمكن أن تصغي إلى الله وتستمع إلى صوت أعظم مسجوني الأرض، وإمام الإنسانية الذي كان ينحني برأسه إلى بئر يبكي ويجأر بألم وحرقة في قلب هذه الصحاري[1].

في هذا الليل الغامض المهيب الأخّاذ كل شيء يبدو هادئاً في

---

(١) يشير إلى الإمام علي عليه السلام الذي كان يذهب إلى مقابر البقيع وينحني على بئر ويبكي.

١٧٤ ـــــــ

خيامهم فوق هذا الجبل. . هؤلاء الجنود المقاتلون في سبيل الحرية قد خرجوا تماماً عن هذا العالم الأرضي، وتولهت خواطرهم بالحب ناظرين إلى سماء المشعر. .

المحيط الأزرق متقلب مليء بالبللورات السماوية (النجوم) التي تظهر تباعاً في ذلك السقف القاتم وتفتح باباً إلى عالم آخر، كأنها ابتسامة الطبيعة اليتيمة تلاطف أهل هذا العالم الأرضي التعس.

القمر يتهادى مشرقاً من قمة الجبل ويضيء وادي المشعر. .

في الركن الآخر من السماء النجوم منهمكة في التعلق ببريق الثريا على أرض المشعر حتى تضيء الطريق الغامض الذي يتوجه نحو الأبدية. . هذا الطريق هو الذي يسمّى الطريق الأبيض أو «الطريق إلى مكة» أو «طريق علي»[١].

* * *

كل هذه المعاني الجليلة الهامة اختفت من أفهام الأميين الذين يضحك عليهم «علماء الدين» الذين ما زالوا في مرحلة «المعرفة».

إنَّ حقائق هذه المناسك لهي أعظم وأعمق من التاريخ، إلاَّ أن هذه الحقائق يتمّ تجاهلها لأنها غير ملموسة!

هؤلاء المؤرخون الذين يستوعبون ويسجلون الأحداث «الملموسة» لا يعلمون أنهم غضّوا الطرف عن هذه الحقائق، كما

---

(١) هذه الأسماء هي أسماء مستعارة في اللغة الفارسية، وسمي طريق علي لأنه يقال إن الأمام علي عليه السلام سلكه إلى مكة (عن الترجمة الإنجليزية).

١٧٦ ـــــــ

قلبك بالعشق. . اقتل كل ضعف وخوف وعقد ورغبات كانت لك في حياتك، ولتتهيأ ليوم غدٍ بالاستعداد الليلة. .

أيها المخلوق الحر والجندي المحب، الأشرار ينتظرون في منى. . وطُن نفسك هذه الليلة على يوم قتال ضارٍ غداً. . في أرض الوعي والشعور، إملأ يديك بالسلاح واملأ قلبك بالعشق.

* * *

قد تسأل نفسك: ما الذي يفترض بي أن أراه أو أفعله هنا؟

الإجابة: لا شيء! إنك حرٌّ في أن تغطس في المحيط البشري. . بإمكانك أن تقضي الليل كما تشاء. . حتى لو نمت فهذا لك! لكن فلتنصرف وأنت في قرارة نفسك تعلم أنك في أرض المشعر الحرام حيث لا شيء تراه؛ فكما اتفقنا من قبل: (ينبغي أن تكون العظمة في نظرتك لا فيما تراه). . لا جبر هنا.

إنَّ الذي يفترض أن تفعله يسمو على أن يكون واجباً بسيطاً إنه: التأمل. .

* * *

يا للروعة!!

مئات الآلاف من الأشخاص بلا أسماء ولا هوية شخصية، يجلسون على الأرض، يتأملون سماء المشعر المرصّع بالنجوم. .

هنا ستروي ظمأك بأمطار الإلهام الخفي الذي يتساقط من السماء. .

١٧٨ ـــــــ

على سفوح الجبال وفي ظلمة الليل إجمعوا أسلحتكم مجتمعين، على أن يحمل كل منكم في قلبه أنه مسؤول عن نفسه.

المرحلة المقبلة هي منى «ميدان المعركة» التي ستقع غداً.. إنه يوم الفداء في زمن الجهاد.

أسلحتك يجب أن تُعدّها وتستجمعها في ظلمة الليل، إلاّ أن القتال يدور في رابعة النهار.

إنَّ هذا المحيط البشري يبدو هائجاً لا يعرف طعم الراحة.. إنهم يتفكرون ويهيئون أنفسهم للجهاد.

آلاف الأشباح الغامضة: كلهم إخوانك وأخواتك جنود هذا المحيط البشري، كل منكم يعرف أخاه حق المعرفة، إلاّ أنه لا يستطيع أن يميّز أخاه أو أخته. كلهم ذات الشيء.

في ظلمة المشعر الحرام كل واحد يعمل في جد واجتهاد منحنياً على الأرض الصخرية يبحث عن «الجمرات» التي ترمى في ميدان المعركة بمنى.

الجمرة: هي حصاة من نوع خاص.. لهذا لا بدَّ أن تكون حذراً! الظلام يحيط بك ويصعب الحصول على الحصى.

في كل واحدة حاول الحصول على الحجم السليم.

يجب عليك اتباع المواصفات وأنت تختار.. المسألة مضبوطة، اتحد مع الناس واجلس قربهم، واستشعر مسؤوليتك كاملة.. إن الأمر جدّي.

١٨٠ ـــــــ

كلها تصرّفات عسكرية . .

الوقائع والأفعال في أهمية النتائج التي تهدف إليها : إن المنظر هو ميدان قتال وليس دير عبادة! . . الأوامر بسيطة ودقيقة ومضبوطة وقاطعة ولا يمكن تجنبها ولا تحتاج إلى تفسير نظري وفلسفي .

هذه أفعال لا صلة لها بدعاء ولا بشفاعة ولا بتبتّل ولا بابتهال . .

إنها تصرفات ظاهرة المغزى والنتائج .

* * *

الطاعة المطلقة التي لا يشوبها أي التباس تميّز هذا الفصل .

لا شيء، ولا أحد يمكن أن يحلّ محل الآخر في هذه اللحظات .

لن تقبل أعذار من أحد . .

تذكر أن هذه الجبال لا سلطان لأحد عليها . . حتى إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام إذا رميا طلقات أقل من العدد المطلوب فإن حجهما سيظل ناقصاً!

ما الذي يشير إليه ذلك؟

إذا اقترفت خطأ ستعاقب . . هنا لا مكان للتفاهم أو الرشوة .

* * *

في اليوم الأول ستهاجم مرة واحدة، وسترمي سبع رصاصات . .

١٨٢ ـــــــ

يا له من منظر رائع!

لقد شهد ليل المشعر في بدايته صيحات جيش مهيب جبار ينسج خيوط خطة هجوم كاسحة سيفجرها في الغد!.. ثم ماذا؟!

إنَّ البحر الصافي الخالي من الأمواج.. المنبسط تحت نور القمر وضوء النجوم التي ترسل عليها وابل من سكب شعاعها فينعكس كل ذلك سماء تتبدى في هذه الأرض.. إنها أرض ملائكة الرحمة والجمال.

كل شخص يستشعر دهشة في أعماقه وهو صامت.. يبدون كأن على رؤوسهم الطير.

إنَّ الإنسان ليسمع صوت الدمع وهو يتقطر على الأرض من أعين هؤلاء الباكين الأطهار..

لا صوت يجرؤ على كسر الصمت في ليل المشعر إلاَّ صوت خفقان القلوب النابضة بالحب..

* * *

المشعر الحرام هو معسكر لجيش عالمي.. وكل جندي فيه هو قائد أيضاً.

إنهم لا يشربون[1].. إنما يتمتعون ويتسلّون فقط بالاستعداد للقتال في اليوم التالي، بل ويحتفلون بانتصارهم مسبقاً في ليلة

---

(١) في معظم الجيوش وفي الأعياد يشرب الجنود والناس الخمر بأنواعها وهو يشير إلى ذلك.

١٨٤ ـــــــ

إنه المناخ الذي تؤديها فيه.

الصمت يطبق على المشعر كأنما الجميع نيام.

لقد مرَّ الليل عبر الجبال وتسرب عبر هؤلاء الذين ناموا في ليل المشعر الحرام، ثم اختفوا فهم في طريقهم إلى منى..

والآن أشرقت الشمس.

* * *

١٨٦ ـــــــ

لكن أثناء الدراما الإلهية للحج تتواجد ثلاثة فصول هي :

* المعرفة .

* الوعي .

* الحب .

لقد حانت ساعة الجمع العظمى في اليوم العاشر، حيث يقع عليه الغداء .

ضوء شمس الصباح المنبعثة للشروق يوقظ الناس من سباتهم. وها هم يتجمعون فوجاً إثر فوج، رويداً رويداً من كل اتجاه، مكونين هذا النهر البشري العظيم .

لقد انتظم الآن الجيش القوي، وتهيأ لمغادرة المشعر الحرام إلى الوقوف التالي بمنى .

لقد استنفذ جيش التوحيد وقتاً طويلاً في جمع أسلحته، ويناجي الله وينتظر شروق الشمس[1] بفارغ الصبر :

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2] .

الجيش يتجه الآن ناحية الغرب حيث «منى» أرض «الله» وموقع «الشيطان» ولم تدع ابتسامة شمس العيد لأحد من راحة . .

---

(١) لا يستطيع أحد مغادرة المشعر الحرام قبل مشرق الشمس، حيث يبدأ الهجوم عند حدود منى .

(٢) سورة الفتح، الآية : ٢٩.

١٨٨ ـــــــ

لا أحد ولا قوة تستطيع أن تخرق جدار الأمن ولو كان إبراهيم عليه السلام أو محمد ﷺ .

هذا الضابط ليس فريضة ولا واجب، ولكنه «سُنّة» وهو الدرجة ذاتها التي وضع الله تعالى مرتبتها لحكم نظام الكون كله:

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[1].

* * *

كما تسري القوة الطبيعية لقانون الجاذبية، وكما ترى الموت والحياة حقيقة واقعة.. كذلك فإن الشمس هنا هي «القائد»..

دعها تشرق فأشعتها سوف تخرق الجدار وتفتح الطريق للجيش حتى يعبر ببساطة مثلما يأتي الضوء على الظل فيمحوه!..

الجدار المنيع الذي أوقف الجيش سيتحطم بعد قليل حينما تشرق ابتسامة النهار..

خلف الحاجز الخفي ينتظر الجيش وهو يتململ بعدّته وذخيرته.. ينتظر الليل كله حتى تشرق الشمس مصدرة الأمر بالعبور.

* * *

انسلخ الليل وانتشرت أشعة الضوء غامرة المكان، لكن ما تزال هناك بضع لحظات حتى تظهر الشمس جلية في الشرق.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

١٩٠ ـــــــ

يا لها من لحظة رائعة!

الشمس ترسل ضياءها، والشفق يعبر بأشعته النافذة، والصبح تنفست نسائمه.. كل ذلك يجعل كل إنسان يهتزّ بلا راحة.

إنها «آيات الله المقدسة» التي تجسد السعادة والأمل والإيمان.. تتجلى وتعطي أمرها بالقتال والاستمساك بقوة النصر.. إنها تأمرك بتحطيم الأصنام.

اليوم لن تبقى لأكبر قواعد الشيطان في الأرض بقية..

واليوم سيقتل الشرك، وسيعلو التوحيد ويحلّق ناشراً لواءه المضيء، معلناً عن جوهره الحق.

* * *

فجأة أسفر ضوء الشمس عن الصراط المستقيم، وأصدر الأمر للجنود بالعبور..

ها هي صيحات البهجة تتعالى، وأشعة الشمس وأطياف الجند تتحد وتتدفق عبر مضيق منى..

لم يعد الجمع المتزاحم يتألف من «حمامات السلام البيضاء» ولكن تبدل ليكون «صقور الحرية المسلمين» ولهذا فلا بدَّ للأوامر أن تطاع ولا بدَّ للنظام أن يسري:

إقض الليل بالمشعر الحرام
أدخل في اليوم العاشر إلى منى

* * *

١٩٢ ـــــــ

مشرق أي شمس؟ . . شمس اليوم العاشر من ذي الحجة . . شمس العيد .

يا الله!! . . إنها المسافة بين حدود منى حتى قاعدة الشيطان . . ميدان المعركة عند مدخل منى . .

مهما يكن من أمرٍ فإنّ الاحتفال بالعيد يأتي ـ بالطبع ـ بعد أن تهزم الأشرار وترمي عليهم الجمرات وتنال النصر .

لكن . . انظر إلى أمة التوحيد وتقاليدها : إنها تحتفل بالعيد قبل أن تبدأ المعركة، هذا يعني أنك منتصر بمجرد أن تتخذ قرارك[١] . .

هذا يعني أنك كسبت المعركة منذ أن دخلت حدود منى . .

[ماذا؟ . . ما الذي يقال؟ . . يا إلهي! ما أصعب أن تفهم هذه الأمة البسيطة . . ما أعقد هؤلاء البشر الذين لا يأبهون بشيء ويمضون في سهولة ويسر!]

هذا يعني أنك منتصر إن كان هذا هو الوقت! . . أي وقت؟!

إذا كنت قادماً من عرفات . .

---

(١) الغريب أن الدكتور هشام شرابي وهو مفكر وضعي يقول: (إن التحرير عملية تبدأ في اللحظة التي يبدأ فيها الصراع وليس مجرد هدف نصل إليه عندما ينتهي، فالانتصار هو الانتصار الذي يتحقق قبل أن يصل الصراع إلى منتهاه وتتحقق أهدافه، وكل حركة تحرير تفشل حتى لو انتصرت إن لم تحقق الانتصار السابق الذي يكون هو شرط انتصارها الأخير . . هذا هو معنى التحرير الحقيقي والثورة الحقيقية).
راجع البنية البطريركية ـ دار الطليعة ـ ص ١٠، ١١ الطبعة الأولى .

١٩٤ ـــــــ

إنَّ سُنّة الله التي لن تجد لها تبديلاً هي قوانين تحكم حركة الجماعات والمجتمعات عموماً، وأقدار التاريخ تسير باتجاه تحقيق سنن الله هذه، والذي نستطيع أن نفعله «أنا» و «أنت» هو أن نكتشف هذه السنن، ثم نسير وفقاً لها لتحقيق أقدار الله في التاريخ . . .

وإرادة الله تعالى في الزمن المحدد لها هي محصلة حياة الإنسان ونهاية الثورة الدائمة من أجل سلام الكون.

ألم يقل الله ـ رب إبراهيم وخالق الإنسان ـ في القرآن الكريم:

﴿. . أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[1].

وهو الذي وعد بقوله:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

إنَّ «الاستضعاف» يشمل كل ما من شأنه أن يضعف أو يعادي الإنسانية، وهو الذي يحطم طاقات الإنسان المادية والمعنوية، وهذه الكلمة هي الكلمة الجامعة لكل وسيلة يسخّرها أعداء الإنسانية: استعمار. . استبداد. . استعباد. . استحمار. .

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥.

١٩٦ ـــــــ

* والذين سيعذبون.

وكذلك قال «جان بول سارتر»[١] في إحدى افتتاحيات كتبه: (من مجموع سكان الكرة الأرضية البالغ بليونين، يؤمن الاستعماريون أن خمسمئة مليون فقط يمثلون الإنسانية، بينما يعتبرون البليون والنصف الباقي مجرد رعايا أو مجموعة لا امتيازات لها تشكل ما يسمى بـ: العالم الثالث).

إذا كان مصير التاريخ وقدر الله قد قرر أن النصر سوف يكون حليف «المستضعفين» أولئك الذين «لا حول لهم ولا قوة» من سلالة هابيل..

وإذا كانت سنن الله لن تتبدل، وهي التي تحكم مصير التاريخ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٢].

ماذا يفترض أن تكون عليه أنت؟.

إنَّ شأنك شأن كل مظاهر خلق الله.. عليك أن تكتشف هذه السنن وتختار قدرك!، فكما أن للطبيعة التي حولك مآل ومصير، وللتاريخ مآل ومصير، فإن لك أنت أيضاً مآل ومصير.

أنت نزيل في أربعة سجون تحتويك: سجن الطبيعة

---

(١) جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠): فيلسوف وكاتب فرنسي من رؤاد الوجودية المتشائمة، قال إن الوجود متقدم على الذات أو الماهية، وإن الإنسان مطلق الحرية في الاختيار. رفض جائزة نوبل ١٩٦٤. (المصحح).

(٢) وردت في أكثر من سورة: الأحزاب: ٦٢، فاطر: ٤٣، الفتح: ٢٣.

١٩٨ ـــــــ

المعرفة هنا ـ في هذا السجن الرابع ـ لا تصلح علاجاً، لأنها هي نفسها سجينة داخل «العارف»!

هناك أنماط أخرى من المعرفة حمل مشاعلها الأنبياء هي: الحكمة، والوعي، والإيمان.

إنها أنماط المعرفة التي تضيء لك الطريق وتيسّر لك السبيل لاكتشاف نفسك، وتُعَرف السجين الذي يقوم في داخلك..

القوة التي ستحررك من داخلك ـ من عبادة الذات ـ ليست هي العلوم المسخرة، وإنما هي فن الحب والتراحم..

إنَّ الحب والتراحم هو الذي يمكّنك من تقديم حياتك شهيداً إذا كنت تشعر أنها سجنك، بل وتضحّي بإسماعيل بيديك ـ وهو فعل يتجاوز ويفوق الشهادة ـ إذا كنت تشعر أنه يقف في طريقك.

إذاً يمكننا أن نستخلص: أنك تستطيع أن تحرر نفسك من السجون الأربعة بـ «الحب والتراحم» فهي تلك المعرفة التي تزوّدك بدرجة من الوعي والابداع، تجعلك تبني نفسك لتبلغ بها أمر الله؛ وحتى لا تكون مجرد عبد للدنيا.

الإنسان هو ذلك المخلوق الذي هبط إلى الأرض وحيداً..

أنت إذاً ظاهرة حية، وعليك أن تبني طبيعتك الخاصة بك.

إنك «الصفر» أو «اللاشيء» الذي يستطيع أن يصبح «كل شيء»..

إنك «شك» أو «ممكن» يلبس شكل إنسان!..

٢٠٠ ـــــــ

ولكنها منزلة بين المنزلتين أو أنها جمع بينهما» . .

إنها حرية أن تختار قدرك : التسليم + الطاعة = الإسلام .

* * *

هذا الطوفان البشري يتدفق عبر حدود منى، ويهزم إبليس في أرضه . . في اللحظة ذاتها التي ينهزم فيها الشيطان؛ ترفع شمس اليوم العاشر رايات النصر . .

مع ابتسامة الشمس الأولى تصدر إشارة العبور وأوامر بدء الهجوم لتبدأ المعركة، وفي اللحظة ذاتها تعلن الشمسُ النصرَ وإنجازَ المهمة .

هذا هو قدر التاريخ ومشيئة الله للناس .

كل ذلك في يديك وخاضع لإرادتك . .

ولكن ما هو الشرط الأهم الذي يجعلك منتصراً ـ إذا انضممت إلى هذا الطوفان البشري ـ مع هؤلاء الناس الذين عزموا على القربى إلى الله «الأمة» . . «المجتمع المتحرك اللانهائي» «بذلك النهر المتدفق الفياض كالإعصار الذي يخترق أية صخرة أو سدٌ ماضياً حتى يلقى البحر، ولا رادَّ لمسيرته؟!» .

إنَّ الشرط هو ألاّ تتوقف على الطريق من المشعر الحرام إلى منى، ولا تخطىء الطريق سالكاً طريقاً آخر غير طريق الناس . .

عليك إذاً أن تبقى مع الناس، فإذا فعلت، فستصل إلى منى وستهزم الشيطان، وستضحّي بإسماعيلك . .

هذا هو أمر الله المبين لكل هؤلاء الذين جاءوا إلى الحج:

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[1].

ها هو جيش التوحيد يدخل وادي منى.. ميدان القتال، مزوداً بسلاحه الكامل وعزيمته الكاملة.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

# جبهة القتال ـ رمي الجمرات

تنتصب القواعد الثلاثة على طول شارع الملك. . تفصل بينها عدة مئات من الأمتار. . يمثل كل منها: أثراً أو تمثالاً أو صنماً. . كل عام تُطلى وجوههم باللون الأبيض.

«الله أكبر» يا لها من عبارة فياضة بالمعاني. .

لقد وصل الجيش. . الكل مزوّد بالسلاح «الجمرات» ومستعد لإطلاق النار.

عندما تصل إلى الجمرة الأولى لا ترمي، ولكن أعبر! . .

وعندما تصل إلى الجمرة الوسطى لا ترمي، ولكن أعبر أيضاً!! . .

وعندما تصل إلى الصنم الثالث حيث «جمرة العقبة» لا تعبر، ولكن ارم! . .

لماذا؟!

٢٠٤ ـــــــ

لقد انتهت المعركة . .

عندما يسقط الأخير، فلا سبيل لأن يقاوم الأول والثاني . .

إنَّ الصنم الأخير هو الذي يدعم الصنمين الأول والثاني . .

* * *

بعد أن تغادر جبهة القتال فلن تفعل شيئاً آخر غير تقديم الفداء، وعندئذ فقط لك أن تحتفل بانتصارك وتعلن عنه: إحلق شعر رأسك، واخلع إن شئت لباس الإحرام، والبس ما شئت من الثياب . .

أنت حر الآن . . أنت إنسان! ؛ لقد هزمت (منى) وانتصرت على الشيطان .

ما الذي أقوله؟ .

إنك إبراهيم الآن . .

إنك في مقام التضحية بإسماعيلك في سبيله تعالى .

* * *

٢٠٦ ـــــــ

**«إن الحج شعائر وليس مناسك»**.

أثناء الحج كل فعل لا يُبدأ إلاَّ ويُسبق بالنية؛ فكل فعل بلا نية باطل ولا يقبل..

النية أيضاً تسبق فريضة الصيام، وإذا نسيت أن تنطق بها فأنت تستيقنها على نحو ما، هذا أيضاً ينطبق على الجهاد، وإذا لم تكن لك نية فأنت لم تصبح بعد جندياً مقاتلاً..

في الحج أعمالك لا طائل من ورائها بلا نية؛ إذ إن هذه المراسم «إشارات» و «رموز» و «علامات»..

فالذي يضع جبهته على الأرض دون أن يعي معنى السجود، فهو لا يعدو أن يكون ماساً للتراب بجسده، والذي لا يدري جوهر الحج يعود من «مكة» بحقيبة ملأى بالهدايا وعقل فارغ[1].

* * *

أثناء الحج ستقوم بالآتي:

* ستعلن التوحيد بالطواف..

* ستخوض نضال هاجر في السعي..

* ستعرض هبوط آدم عندما تنتقل من الكعبة إلى عرفة..

---

(١) في مكة اليوم العديد من المخازن التي تبيع مختلف الهدايا كالمعدات الكهربائية وأواني البيت والمجوهرات وغيرها، وكثير من الناس يتعاملون مع الحج كفرصة سانحة جذابة للسياحة الشرائية حيث يصرفون وقتاً طويلاً ومالاً كثيراً في حشو حقائبهم. إن مكة اليوم سوق حر جيد للتجارة الخارجية.

٢٠٨ ـــــــ

الذي يضعف إيمانك . . كل الذي يصدّك عن السبيل . . كل الذي ينأى بك عن تحمل المسؤولية . . كل الذي يجعلك غارقاً في ذاتك . . كل الذي يصم أذنيك عن سماع دعوة الإسلام والاستجابة لها . . كل الذي يجبرك على الفرار . . كل الذي يجعلك تستجيب لداعي القعود والوخم والسكون . كل الذي يجعلك أعمى وأصم . .

أنت الآن في مقام إبراهيم الذي كان ضعفه يكمن في حبه لإسماعيل : «ابنه» . .

لقد حاول الشيطان أن يغويه . . .

تخيّل نفسك في ذروة المراحل . . ممتلئاً بالفخر والزهو، وهناك شيء واحد فقط يمكن أن تترك في سبيله كل شيء، وتضحي من أجله بكل حب سواه ليبقى لك حبه . . هذا هو إسماعيلك! إسماعيلك هذا قد يكون «شخص» أو «مرتبة» أو «موقع» أو «موضوع» أو حتى «ضعف» . . .

لكن الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه . .

كانت حياة إبراهيم تمضي إلى خواتيمها بعد أن امتد به العمر لمائة عام، شهد خلالها من الكفاح والحركة والتشرّد والقتال في جهاده المقدس ما شهد، وبعد أن واجه جهل قبيلته، وواجه قهر النمرود، وواجه تعصب عبدة الأصنام . .

لقد كان في شبابه ذكياً متمرّداً، إلاّ أنه قضى تلك الفترة من العمر في بيت «آزر» أحد المتعصبين لعبادة الأصنام، بل كان هو نفسه صانعاً لها! . .

وكان قدر إبراهيم في الزوجة «سارة» العقيم التي يتمثل فيها تعصب الأرستقراطية. لقد عهد الله لإبراهيم بالعمل الصعب. أي أن يكون نبياً للتوحيد في نظام قائم على القهر وفي عصور الظلام..

ومع كل ذلك تسامح إبراهيم مع مائة عام من القهر والتعذيب وهو يبث الدعوة والوعي والحب والحرية بين أناس أشربوا الاستعباد...

وقد مضى بإبراهيم العمر وهو ما يزال وحيداً.. وقد ظل إبراهيم ـ حتى وهو في ذروة مقام النبوة ـ إنساناً يتمنّى أن يكون له ابن[1].

بلغت زوجته سن اليأس، وتجاوز هو المائة عام ومع ذلك ظل قلبه مليئاً «بالأمنية» وليس «بالأمل»...

وقد جاء الأوان الذي أنعم فيه الله سبحانه بالجزاء على الشيخ المسنّ وعلى عمره فيما أبلاه وهو يعاني في إبلاغ رسالته...

فقد بارك الله أيامه الأخيرة بابنه إسماعيل من خادمته

---

(١) على النقيض من فلسفات وثقافات الهند والصين والإغريق وحيث يتحول الأبطال والنبلاء والملوك من مقامهم إلى مقام (الألوهية)! فإن إبراهيم عليه السلام ظل دائماً إنساناً رغم أنه مرسخ دعائم عقيدة التوحيد وأبو الأنبياء العظام «موسى وعيسى ومحمد»، لم يكن إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيام في أذهان الفلاسفة والشعراء مثالاً، ولا إلهاً فلسفياً، ولكن ظل دائماً إنساناً حقيقياً بكل حاجاته وغرائزه وعواطفه، إنه إنسان ممن يصطفيهم الله.

«هاجر»، تلك المرأة السوداء التي لم تكن ترقى مكانتها حتى تثير الغيرة في قلب «سارة» زوجة إبراهيم الأولى.

لم يكن إسماعيل إبناً فحسب، ولكنه كان ثمرة لكل آمال العمر، والجزاء الذي أعطي لحياة حافلة بالجهاد، وهو أيضاً الابن الوحيد لوالد مسنٍّ، هو عنده أعزّ ما وجد في كل تلك الأعوام العامرة بالبلاء..

لقد كان الأمر بالنسبة لإبراهيم هو ابنه، ولكن قد يكون إسماعيلك هو: أنت.. أو أسرتك.. أو وظيفتك.. أو ثروتك.. أو شهرتك.. لا أدري! لكن كان لإبراهيم «ابنه».. مثل ذلك «الابن» لذلك «الأب».

أمام عينيه ـ تلك العينان التي دبّ المشيب إلى حاجبيهما، لكنهما اليوم تشعّان بالسعادة ـ كان إسماعيل يكبر وينمو ويترعرع متلقياً كل الرعاية والحب والحنان من أبيه الذي كرّس روحه بثبات ورسوخ من أجل حياة ابنه..

إنه ينظر إليه على أنه نبتة في أرض مقفرة لمزارع مسكين: (كل لحظة من أيامي الأخيرة يجب أن أتمتع بها)[1]...

لقد كانت متعته في وجود ابنه إسماعيل..

إنَّ إسماعيل يختلف عن أي طفل آخر عادي:

---

(١) العبارة لأندريه جيد. راجع هامش ص١٤٦ «المصحح»..

٢١٢ ـــــــ

ويضعف ويخاف ويحتار ويقنط!..

إبراهيم يخرض الآن صراعاً داخلياً في أن يختار بين إسماعيل والله.. يا له من قرار صعب لا بدَّ أن يتخذ!..

أيهما ستختار؟! الله أم نفسك؟! المنفعة أم القيم؟! الاستعباد أم الحرية؟! الدبلوماسية أم الحقيقة؟! الركود أم الحركة؟! السعادة أم الكمال؟! المتعة أم المعاناة في سبيل المسؤولية؟! الحياة من أجل الحياة، أم الحياة من أجل هدف؟! الحب والسلام أم العقيدة والجهاد؟! هل تتبع طبيعتك أم إرادتك الواعية؟! هل تخضع لمشاعرك أم تخضع لإيمانك؟! أن تكون أباً أم تكون نبياً؟! ترعى أقاربك أم تحمل الرسالة؟!.. وأخيراً: الله أم إسماعيل؟!

يا إبراهيم اختر!..

بعد مئة سنة من النبوة بين الناس..

وبعد حياة حافلة بالكفاح ضد عبدة الأصنام، أولئك الجهلة الطغاة..

وبعد أن ظللت منتصراً في كل الجبهات..

وبعد أن وفقت في حمل المسؤولية بكل تبعاتها، دون أن يتطرّق إلى قلبك ذرة من الشك في الطريق الذي اخترته، ودون أن تقيم أي وزن للرغبات الشخصية..

وبعد أن وصلت بالقرب من الله درجة هي أقصى ما يستطيع إنسان أن يبلغه بجهده..

٢١٤ ـــــــ

بروحك السامقة، وصمودك الذي لا يتزعزع (يا ذا العزم من الرسل)... لا تظن أن أمر الله معك قد انتهى..

إنَّ الله ليس ببعيد عن الإنسان!

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[1] لكن المسافة بعيدة بعدها عن الأبدية..

لا تحسبنّ الأمر سهلاً!..

في مقام «النبوة» قد بلغت ذروة الكمال، ولكن في «الطاعة» لم تبلغ بعد الكمال..

آه يا خليل الله ومرسّخ عقيدة التوحيد ومعبّد طريق موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام!...

أيها الأسوة لمجد الإنسان وكرامته وكماله.. أنت «إبراهيم» ولكن أن تكون «المطيع» فذلك أمر عسير!

يجب أن تكون خالصاً لله تعالى متحرّراً من كل ما دونه..

تواضع واترك الزهو بنفسك والأمن من السقوط من قمتك!

إنَّ سقوط الذين بلغوا القمة الأسمى لخطب جلل ومأساة عظيمة.

* * *

(١) سورة ق، الآية: ١٦.

# التضحية بإسماعيل

إبنك العزيز . .

ثمرة حياتك . .

متعتك وسبب بقائك . .

معنى وجودك . .

كلا! بل اسماعيلك . .

إطرحه أرضاً كما يُطرح الكبش، وقدِّمه قرباناً! . . .

أمسك بأطرافه تحت قدميك حتى لا يهرب! . .

أمسك برأسه جاذباً شعره بيديك، وجزّ عنقه، ثم ابق عليه تحت قدميك حتى تطمئن تماماً أنه بلا حراك. ثم . . إنهض ودعه لحاله! . .

آه أيها «المطيع» «العبد» لله هذا ما يريده الله منك . . هذا «نداء إيمانك» و «روح رسالتك» . . هذه هي مسؤوليتك . . . أيها الإنسان المسؤول، يا ولد إسماعيل!

* * *

أمام إبراهيم خياران: أن يستجيب للوعة قلبه و«ينقذ» إسماعيل...

أو يستجيب لأمر الله و«يضحّي» به...

لا بدَّ من اختيار أحدهما: «الحب» أو «الحق»...

إنهما يتصارعان بداخله: «الحب الذي هو حياته، والحق الذي هو إيمانه»..

لو أن الله تعالى طلب منه حياته نفسها لكان الأمر هيناً، فقد جعل إبراهيم حياته في سبيل الله، ولهذا فهو يشعر أنه «مطيع» لله...

إنَّ شعوره هذا «أنانية» و«ضعف»...

ذلك أن الطيب الجميل عند أناس، يعدّ منكراً وقبيحاً لرجل في مثل مقام إبراهيم، ذلك لأنّ حسنات الأبرار سيئات المقربين...

إنه الأقرب إلى الله...

(لاحظ نسبية الأخلاق في مدرسة إبراهيم، ويا له من فهم جدّ مختلف)[1].

---

(١) يشير المؤلف إلى المقارنة مع نسبية الأخلاق في الفلسفة الغربية المعاصرة والتي تجعل الخيانة في بعض الأحيان فضيلة . الخ فهي نسبية انحطاط، عكس نسبية الأخلاق عند متصوفي الإسلام.

٢١٨ ـــــــ

كيف أعرف أن الضمير في إسماعيلك لا يعود تقديره إليَّ أنا؟! ومن ثم أكون «أنا» محل استقبال الرسالة!..

لماذا لا يكون هذا الأمر خطاب عام جاء في صيغة خطاب خاص؟!

كيف أعرف أن إسماعيل هنا يعود إلى إسماعيل وليس ـ كما أسلفت ـ مجرد معنى مجازي؟..

كيف أعرف ـ استناداً إلى رأي بلاغي[١] ـ أن كلمة إسماعيل في جملة «ضحِّ بإسماعيلك» ليست اسماً جاء في موقع المفعول به، ولكن ذكر المحل ويراد به الحال كما هو شائع في العربية وارد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾[٢] والمقصود اسأل أهل القرية، فيكون معنى «ضحِّ بإسماعيل» أي ضحِّ من أجل حبّ إسماعيل..

دعنا نفترض أن كل هذه التأويلات غير واردة، وإن الأمر المقصود هنا هو المعنى البسيط المباشر الذي يتبادر إلى أي ذهن..

ضحِّ بإسماعيلك..

كيف أعرف أن هذا الأمر يجب أن يُنفَّذ حالاً؟!..

ألا يوجد نطاق زمني محدّد شأن كل قانون مكتوب؟..

---

(١) هذه تفسيرات تعود لبعض طرق علم البلاغة التي تُشكِل أحياناً المعنى أكثر مما توضحه.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

إنَّ ذلك هو دور الحكمة في اختيار الوقت المناسب، مع الأخذ بالاعتبار التقديرات والظروف والسياسة والامكانات والاحتمالات. . .

القرآن الكريم يأمرنا بالجهاد في سبيل الله، ولكن وقت الجهاد وشكله يعتمدان على التقديرات والظروف التي تأخذ بها الحكمة. .

مثال آخر من السُنّة المطهرة عندما تأمر بطلب العلم وتقول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

إنها لا تفرض على أحد أداء هذا الواجب في وقت محدد حتى ولو قام بأداء هذا الواجب في الساعات الأخيرة من حياته، وهو على فراش الموت! . .

الحج ـ أيضاً ـ يمكن أخذه كمثال للواجب على التراخي، وهناك الكثيرون الذين يؤجلونه سنة بعد سنة، وبعد أن يعيشوا حياتهم الطليقة، وعندما تقترب أيامهم من النهاية قد يقررون أداء هذا الواجب! . . فهذا واجب يمكن أن يؤدى في أي وقت.

هؤلاء المؤمنون يظنون أن هذه المسؤوليات تؤدّى من أجل الحياة الآخرة وليس من أجل هذه الحياة الدنيا. . .

إنهم يحسبون أن شرائع الدين إنما جاءت من أجل اليوم الآخر وليس السبيل التي تنتفع بها هذه الحياة الدنيا ويتزكى بها

الإنسان ويرتقي بها نحو مدارج الكمال[١].

وكيف أعرف استناداً إلى طرائق النظر ـ أن هذه الجملة: «ضحِّ بإسماعيلك» المقصود بها أمر واجب وليس مندوب؟..

أغلب الظن أن المقصود هو الأخير!.. ألا يشبه هذا الأمر الآخر الذي يقول ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ حيث إن الجميع يجب أن يدفعوا للفقراء ما يستطيعون. أو الأمر كما في الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

فذلك فعل بغيض عند الله.. وهو أمر إرشادي جاء بالإيحاء ليذكرنا بما تهدينا إليه حكمتنا.

وإلى جانب كل هذه التفسيرات الحكيمة والمشروعة والاستشهاد بالآيات والقصص، والاستناد إلى معايير البحث العلمي ومقاييس العقل، ومن أجل كل الغايات الخيرة.. فإن قتل النفس هو ذنب ولا ريب، ولا يجوز للمرء أن ينسب مثل هذا المنكر إلى الله تعالى وهو أرحم الراحمين...

* * *

وإذا صرفنا النظر عن كل ما سبق من تفسيرات وتأويلات، يبقى مع ذلك واضحاً من هذا الأمر أن الله الرحمن الرحيم يريد أن

---

(١) ينتقد المؤلف في الفقرات السابقة واللاحقة مفاهيم وسلوكيات شائعة بين المسلمين ليست من الإسلام.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

٢٢٢ ـــــــ

لحياتهم السعيدة وهم يديرون أعمالهم دون تعكير أو اضطراب! . .

إنَّ الحقيقة والعدل عندما يتوافقان مع الحياة ويتّسقان مع خطها المعتاد فإنهما يستعملان كرأسمال وأداة ووسيلة للشهرة، وكسبيل إلى منصب ومرتبة ورخصة للحياة! . .

في هذه الحالة لا يكتفي الناس بالحديث عن العدل، بل يعتقدون إلى جانب ذلك أنهم صالحون باستعدادهم لبذل خدماتهم للآخرين!! . .

أمّا عندما تصطدم الحقيقة والعدل بمسار حياتنا اليومية، ويصبح أنصار الحقيقة والعدل في مأزق وخطر، وأنه على «الصالحين» تحمّل أعباء ثقيلة من المسؤولية. . عندما يظلم الطريق ويأتي الليل بعواصفه المحمّلة بالمخاطر والمهاوي. . حينئذ تفقد الحقيقة والعدل أنصارهما، فيعزّ الرفيق إلاَّ من فئة قليلة، وقد يسير الإنسان ـ في بعض الأحيان ـ وحده وليس معه أحد.

وعلى الأنصار أن يتركوا وراءهم كل عائق ويتجاوزوا كل العقبات مهما عظمت، خاصة أولئك الذين يعيشون في ظلمات القهر حتى كادت فطرتهم أن تنطمس. . .

* * *

إنَّ الله الرحمن الرحيم يأمرك بالتضحية بحياتك وبحبك كي تمضي على سبيله، ولكنّ إغراءات الشيطان تشدّك إلى الركون إليها واتباع سبلها. . كيف؟! . . . بالتبريرات! تلك التبريرات التي تحور إيمانك حتى يتوافق مع مطالب الدنيا. . وعندها لن يصمك أحد

٢٢٤ ـــــــ

الصراع يحتدم في صدر بطل التاريخ بسبب إغواء إبليس، وإذا بإبراهيم يشعر بالضعف والشك والخوف والهزيمة في الصراع بين الله والشيطان.

* * *

في عمق الجبلة البشرية يوجد تضادّ بين الحب والحكمة.. بين الحياة والإيمان.. بين أن تكون في سبيل ذاتك وأن تكون في سبيل الله..

هذه هي طبيعة الإنسان...

ظاهرة تقع بين الروحانية والحيوانية.. بين الدنيا والآخرة... بين الغريزة والحكمة.. بين السماء والأرض.. بين حب النفس وحب الله.. بين الواقع الجاهلي والحق.. بين الكفاية والكمال.. بين الاستعباد والتحرر.. بين التسيب والمسؤولية.. بين الكفر والإيمان.. بين في سبيل الأنا وفي سبيل نحن.. وأخيراً: بين من أنا وما يجب أن أكون.

* * *

اليوم الثاني وإبراهيم يرجح في ميزانه حب ابنه على مسؤوليته أمام الله.

«حياة إسماعيل في خطر»

هكذا يوسوس الشيطان لإغواء إبراهيم، وكما أضل آدم ودفعه ليأكل من الشجرة المحرمة في الجنة، وكما هو شأن الإنسان - أي إنسان ـ فيه جدلية المكونات: الطين والروح..

إبراهيم كذلك في شك: أيختار ابنه أم الرسالة.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[١].

* يا نبي الله إن الرسالة هي مسؤوليتك..

* يا نبي الله هل تريد أن تكون أباً لابنك؟

* هل يجب عليَّ أن أضحي بإسماعيل بيدي هاتين؟

* نعم!

* نعم! يجب أن أضحي بابني في سبيل الله..

إنَّ قهر العاطفة لا يرقى لعظمة عقيدتي..

هل يجب أن أبقى أباً لإسماعيل، أم أمضي في طريقي حاملاً الرسالة؟ (الشيطان يحاول مرة ثانية).

* لقد بلغتني هذه الرسالة في الرؤيا، فكيف تكون حقيقة؟!.

هذه هي المرة الثانية التي يرفض فيها إبراهيم التضحية بابنه هذه هي **الجمرة الوسطى**.

«يا إبراهيم ضحِّ بابنك إسماعيل»

لقد جاءت الرسالة هذه المرة واضحة جلية تستعصي على كل طرائق التبرير العقلي... إنه بلا خيار، فالنداء بَيّن كما الأبيض والأسود...

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٨.

والشيطان بكل مهارته وذكائه لن يستطيع أن يفعل أي شيء للتشويش عليه.

وإنكار الرسالة يعني طاعة الشيطان.

* * *

إبراهيم الآن على حافة وادٍ سحيق..

هل أزفت ساعة سقوطه؟!..

هل يجوز ذلك على إبراهيم الذي كسّر الأصنام؟!..

ذلك الرسول من أولي العزم.. قائد الأمة ومُرسِّخ الإسلام يسقط من بهاء ذروة التوحيد إلى هاوية الشرك السحيق.. ليس كفراً ولكن إيماناً بآلهة عديدة تعبد مع الله!!!...

القرآن الكريم يصف إبراهيم واقفاً في (منى) بين أمر الله تعالى ووسوسة الشيطان...

إنَّه لا يستطيع أن يستجيب لكليهما، ولا يستطيع أن يتجاهلهما..

يا لها من قصة مروّعة!!.

رجل هو خليفة الله... تخَلَّق بأخلاق السماء.. يستطيع أن يفعل ما يشاء. يستطيع أن يحكم كل العالم.. هنا ما أضعفه! وما أعجزه!

فيه روح الله، لكن مع ذلك يحمل ضعفه بين جنبيه:

٢٢٨ ـــــــ

كلا يا إبراهيم إن الذي عاش حياته الطويلة كلها أهل للثقة، ينبغي ألاّ يكون ضحية لأحابيل الشيطان.

إنَّ قبول الرسالة مثل القفز فوق النار، والشيطان هو العدو الذي يتظاهر بمحاولة إطفائها، ولكنك ـ بنظرك المحجوب برغبات نفسك ـ لا تستطيع أن تحدّد من هو العدو ومن هو الصديق استناداً لتظاهره هذا؛ إذ إن هذا الحكم ينبغي أن لا يُبنى على رغبات النفس.

كان جلياً لإبراهيم ما الذي يجب عليه أن يفعله، ولكن ريبه وشكوكه السالفة كانت وليدة حبه الشديد لإسماعيل..

والد مسكين... طاعن في السن.. ظل ينتظر ابناً على يأس ولسنوات، ولكن جاءه أمر أليم، ممض في الألم..

آه.. يا لها من مأساة مروّعة!..

كانت مسؤولية إبراهيم فوق احتمال الشيخ الكبير والأب الوحيد الذي يتعيّن عليه أن يضحّي بابنه.. وقد يكون هذا الأمر مريحاً ويسيراً.

ولكن لا.. إسماعيل الصغير هو الذي يموت، ويبقى الأب المسنّ وحيداً.. حزيناً.. بيديه الباليتين وقد ضرّجتهما الدماء.

عندما يفكر إبراهيم في الرسالة، فهو على تسليم مطلق بها..

ولكن حينما يفكر في التضحية بوحيده إسماعيل، يغمره

٢٣٠ ـــــــ

لـقـد سـمـعـت هـذا الأمـر فـي الـحـلـم

كلا إن ذلك كافياً . . إن ذلك كافياً (هكذا يحدّث إبراهيم نفسه)

لقد اتخذ قراره، وأضحى اختياره قاطعاً: محض الحرية في طاعة الله .

(محض الحرية في التضحية بإسماعيلك)

لقد انزاحت العقبة الأخيرة التي كانت تحجب طريق إبراهيم عن حريته . . .

لقد قرر إبراهيم أن يشرك ابنه في تلقّي الرسالة، ومن ثم دعاه . . جاء إسماعيل . . فنظر إليه أباه من رأسه إلى أخمص قدميه :

إنـه الـضـحـيـة والـفـداء الـعـظـيـم

* * *

٢٣٢ ـــــــ

وأخيراً استعاد إبراهيم الثقة بالله وقال:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾[١].

كانت كلماته سريعة خافتة فما استطاع هو نفسه أن يسمعها.. ثم غلب عليه الصمت وقد شحب لونه من الفزع صارفاً بصره غير قادر على النظر في عيون إسماعيل.

كان إسماعيل يدرك مقدار ما يقاسيه أبوه؛ فجاءت كلماته تعبر عن المؤاساة:

(يا أبتاه كن مطيعاً لله، ولا تتردد في التنفيذ، وستجدني إن شاء الله كذلك مطيعاً، وبعونه تعالى سأحتمل ذلك):

﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٢].

لقد وضع إبراهيم ثقته كلها في الله وهو يزداد خوفاً..

اتخذ قراره ونهض ممسكاً بسكينه يحاول شحذها على قطعة حجر..

هل يستطيع أن يفعل ذلك بابنه الذي أحبه كل هذا الحب؟!

إسماعيل ذلك الفتى الشجاع الذي تقبّل أمر الله يبدو هادئاً مطمئناً، وكأنه ليس مقدماً على أمر جلل.

وإبراهيم ذلك المحب الصادق لله حطم مشاعر «الأنا» جاعلاً توكله أولاً على الله وحده.. ها هو يأخذ الضحية الصغيرة إلى

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

٢٣٤ ـــــــ

هناك درس آخر عظيم: ذلك أن إله إبراهيم مناقض لبقية الآلهة الأخرى من دونه التي تتلمظ جوعاً لأكل لحوم البشر.. إنه ليس متعطشاً للدماء شأن الآلهة الأخرى..

ما أجمله من درس!، وما أعظمه من معنى!!..

إنَّ الله لا يريد لإسماعيل أن يذبح، ولكن يريد من إبراهيم أن يذبح إسماعيل، وقد فعل وأطاع أمر الله في شجاعة كاملة!..

كذلك كان إسماعيل جديراً أن يختار للفداء، وقد استحق النجاة بعد أن استسلم في حلم وصبر جميل، ومن ثم فلا حاجة لأن يقتل..

إنَّ الله الرحمٰن الرحيم ليس محتاجاً سبحانه، بل نحن البشر الذين في حالة الحاجة الدائمة إليه في كل شيء.

* * *

تلك كانت مشيئة الله العلي الكبير، وهو أرحم الراحمين..

لقد رفع الله إبراهيم وكرّمه إلى مرتبة الاستعداد للتضحية بإسماعيل دون أن يقتله حقيقة.. وكذلك رفع إسماعيل وكرّمه ليكون ضحيته وقرباناً له دون أن يلحقه أذى.

هذا هو دين إبراهيم: **الإسلام**.

إنَّه ليس تلك القصة التي تحكى عن الإله المتعطش للدماء[1].. الإله المازوشست الذي يعشق تعذيب الإنسان.

---

(١) يشير إلى قصة الأب الروحي (God Father) عن الترجمة الإنجليزية.

٢٣٦ ـــــــ

موقع عزيز عزّة موقع إسماعيل لدى إبراهيم! .

إنَّ بعض سمات إسماعيلك وعلاماته تجدها في كل ما يأخذك بعيداً عن حريتك، وفي كل ما يتوقف بك عن أداء واجبك، وفي كل متعة تعطيك السلوى، وفي كل ما يصمّ أذنيك ويمنعك عن معرفة الحقيقة، وفي كل ما يقنعك بالتعقل من قبول المسؤولية، وفي كل الذين يبذلون لك العون لأنهم يتوقعون منك العون في المستقبل. . . .

يجب أن تبحث حتى تجده في حياتك وتحدده. . .

إذا كنت تريد القربى إلى الله، لا بدَّ لك من ذبح إسماعيلك عند (منى).

لا تختار الكبش (فدية) بنفسك، ولكن دع الله تعالى هو الذي يعينك ويمدّك به هبة وجزاءً، لأنّ هذه هي الطريقة التي يتقبل الله بها الكبش أضحية. .

فالفداء هو أن يقدم لك الكبش بديلاً عن إسماعيلك. .

أمّا أن تضحي بالكبش وأنت لا تنشد من وراء ذلك إلاّ الأضحية فهذه مجرد ذبيحة[1].

* * *

(١) وكأن شريعتي يقول سائلاً: هل هذا الكبش الذي نذبحه هو الذي اختاره الله لك بديلاً عن إسماعيلك، الذي يجب أن يكون بدوره أعز ما تملك في دنياك، لأن إسماعيل عليه السلام كان ابن إبراهيم وأهله. فهل هذا الكبش الذي تضحي به أتى استبدالاً من الله سبحانه لإسماعيلك الذي كنت على أتم الاستعداد للتضحية به قربة لله وحده؟. .

# رموز التثليث

# الأصنام الثلاثة

تذكّر أنّ الأصنام الثلاثة في (منى) تمثّل الشيطان الذي حاول أن يغوي إبراهيم.

هل بالضرورة على كل إنسان أن يخوض غمار تجارب ثلاث حتى يحرر نفسه من كل أنماط الاستعباد؟!

إنَّ الواجب يدعوه إلى نكران الذات حتى يهزم الحالة الحيوانية التي تجسدها عبادة الذات، ويرتفع إلى مقام إبراهيم جاعلاً كل عمله خالصاً لله.

ألاّ ترى أن هذه الأصنام الثلاثة تقف على النقيض من فصول الحج الأكبر الثلاثة؟

**الجمرة الأولى**: عدو عرفات

**الجمرة الثانية**: عدو المشعر

**الجمرة الثالثة**: عدو منى

أليست هذه الأصنام الثلاثة هي تمثيل لقوى الشيطان المتسلط والذي يرقد في مكمن ويتربص بالإنسان الدوائر ليقطع الطريق إلى ملة إبراهيم؟!

ولكن ما الذي تفعله هذه الشياطين الثلاثة على وجه التحديد؟

إنها تبدّل الرسالة وتمسخها..

في صعود الإنسان نحو الوفاء بمسؤوليته تقوم قوى الشر ـ لتعوّقه ـ بمهاجمته عبر ثغرة ضعفه..

هناك دلالة أخرى تجعل معرفتنا بهذه الأصنام الثلاثة أفضل وهي:

الحقيقة التي يمثلها وجودها مستقلة عن بعضها، وكل منها له هوية خاصة به.. هوية متميزة، ولكنها رغم ذلك مشدودة إلى بعضها بأواصر «الصداقة» والعمل المشترك ضد الإنسان..

وبعبارة أخرى: فإن الأصنام الثلاثة المفردة تمثّل شيطاناً واحداً.

الموجود أمامنا جوهر واحد بثلاثة أوجه، أو ثلاثة أوجه من أصل واحد..

وهذا بالضبط هو معنى التثليث!..

توضح الأمثلة الآتية هذا المفهوم:

في اليهودية: تجد الأقانيم الثلاثة كما وصفها فيلون[١].

في المسيحية: تجد الأب والابن والروح القدس!

في اليونانية: تجد الوجوه الثلاثة في رأس واحد!

في الهندية: تجد الويشنو أيضاً بوجوه ثلاثة في رأس واحد!

في الهندوسية[٢]: تجد المينو ذو الأجزاء الثلاثة الرأس والجزع واليد.

في إيران القديمة: تجد أهورا، مزدا، والنيران الثلاثة التي تسمى غاشنسب، . واستخر، وبرز ين مهر. .

وفي مكان آخر: المخلص، وظل الله، وعلامة الله.

* * *

ما هو الشرك؟

إنَّه الإيمان المؤسس على شؤون الدنيا. وفقاً للفلسفة المادية

---

(١) فيلون: (نحو ١٣ ق.م ـ ٥٤) فيلسوف يوناني يهوديّ الأصل. ولد في الاسكندرية. حاول أن يشرح الدين بتعابير الفلسفة اليونانية الأفلاطونية. عمل على تطبيق الطريقة الرمزية على نصوص التوراة. له تأثير كبير على آباء الكنيسة الشرقية والفلاسفة العرب كأفلاطون مثلاً. «المصحح».

(٢) الهندوسية: ديانة معددة وموحدة، فهي تجعل لكل ظاهرة طبيعية إلهاً، جمعت كل الآلهة في إله واحد أعطته ثلاثة أسماء. براهمان أي الواحد، وڤشنو أي الحافظ، وشيغا أي المهلك. وهي فلسفة حياة أكثر منها عقيدة، وهي ديانة للغالبية من الهنود. «المصحح».

الاشتراكية العلمية[١] . .

إنَّ الشرك هو ذلك النظام القائم على مادية ذات بناء فوقي متوافق مع بناء تحتي هدفه إفساد الإنسان ووعيه الذاتي .

وهذه النظرية إن كانت صالحة للتطبيق على الشرك فلا يمكن تطبيقها على التوحيد؛ فمفهوم التوحيد يتناقض جذرياً مع مفهوم الشرك، ومن ثم فإنهما لا يمكن أن يقودا إلى أصل واحد أو أن يؤديا نفس الوظيفة . وعبر التاريخ ظل الصراع قائماً بين العقيدتين :

التوحيد ضد الشرك . . إلاَّ أنه وعبر تمثّلهما الاجتماعي اختلط المفهومان ـ لسوء الحظ ـ وتسنى للشرك أن يلبس قناعاً للتوحيد، ولأمد بعيد . . .

* * *

في الأصل كان ثالوث المسيحية توحيداً[٢] .

وبالمثل كانت الديانات الهندوسية والمزدكية . . . كلها ترجع إلى إله واحد .

ومن الجائز أن نجد حجة إذا قلنا أن التوحيد هو أصل كل العقائد، ولكن التاريخ وتأثيرات النظم الاجتماعية قد أحدثت

---

(١) أي الفلسفة الماركسية الفاشلة، وللمؤلف عدة أبحاث خصصها لنقد الفكر الماركسي. وهو هنا لا يخص الماركسية وحدها بالشرك ولكن كل مذهب يحارب الله أو يشرك معه آلهة أخرى كما سيأتي.

(٢) وذلك كما علم السيد المسيح تلاميذه (المؤلف).

٢٤٢ ـــــــ

فرعون[١] : رمز الطغيان

قارون[٢] : رمز المال

بلعم[٣] : رمز النفاق . . .

أمّا الشرك فهو يعبر عن المقامات الثلاثة في نظامه ذي الأبعاد الثلاثة «التثليث» بالأب والابن والروح القدس.

إنهم يدعونك لتعبدهم من دون الله . .

لا تنس أنك في مقام إبراهيم!

هم يريدونك أن تظل على حب إسماعيلك حتى يجدوا ثغرة ينفذون منها ليخدعوك أو يربكوك أو يغتصبوك أو يبدلوا قيمك ورؤاك، ومن ثم يقودونك إلى الضلالة.

* * *

أيها الحاج . . أنت الآن بمنى . . إرم! لقد جئت بإسماعيلك إلى محل الفداء . .

كما رمى إبراهيم الأصنام الثلاثة وأسقطها أرضاً . . أنت يا

---

(١) فرعون: إسم أطلق على حكام مصر الأقدمين. نسبة إلى «رع» إله الشمس كبير الآلهة عند المصريين. وقد ذكر فرعون في القرآن الكريم.

(٢)قارون: من أثرياء العبرانيين في أيام موسى. اضطهد موسى فذهب الله بثروته. ذكر في القرآن. هو قورح في التوراة.

(٣) بلعام: عرّاف أرسله ملك مؤاب (ابن لوط) ليلعن إسرائيل، فبارك ولم يلعن. «المصحح».

٢٤٤ ـــــــ

وإنَّ مسؤولية الفرد ليست قاصرة على ما يفعله فحسب، وإنما أيضاً على ما يفعله الآخرون:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1].

* * *

إنك قد تسأل: أيّ هذه الأصنام الثلاثة يمثل (فرعون) رمز الطغيان؟..

وأيها يمثل (قارون) رأس المال ورمز الرأسمالية؟..

وأيها يمثل (بلعم) رمز النفاق؟..

إنَّ كل من يحمل في صدره الوعي الإبراهيمي سيصدر عن تصوره الخاص في تحديد ذلك، وعن مناهجه التي يطرحها للتغيير الاجتماعي، وعن مسؤوليته القائمة على الظرف السياسي الاجتماعي الذي يعيش فيه مجتمعه..

قد يعتبر الصنم الأخير هو:

فرعون.. لأولئك الذين يهتمون بالسياسة، ويعيشون تحت وطأة القهر والحكم العسكري والفاشية.

قارون.. لأولئك الذين يهتمون بالاقتصاد، وينظرون إليه باعتباره البناء الذي أسس عليه المجتمع.

بلعم.. لأولئك المثقفين الذين يعتقدون أن التغيير

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

الاجتماعي لا يمكن أن يقع إلاَّ إذا قام كفاح أصيل ضد الجهل، وضد بؤس العقل، وضد كل ما يجعل الناس يتعلقون بأنماط الشرك التي تتخفى تحت غطاء التوحيد.

في رحلتي الأولى والثانية إلى الحج كنت أعتبر أن الصنم الأخير هو (بلعم)، وكانت رصاصتي تنطلق بهذه النية، وخاصة عندما وجدت أن ذلك يتفق مع ما جاء في الآية الكريمة:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾(١).

إنَّ الله تعالى يدين الطغيان والجهل والنفاق، ويكشف أولئك الذين يدعون «قادة روحيين» بينما هم ـ بوعي منهم أو دون وعي ـ يضلّون الناس بدلاً من هدايتهم..

إنَّ الله غاضب عليهم؛ إذ يقول عنهم:

﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾(٢)

ويقول عنهم أيضا:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾(٢)

هناك دليل آخر على نيتي، وهو تلك الكلمات القوية التي خاطبنا بها الله سبحانه في سورة الناس آخر سور القرآن الكريم..

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

في هذه الآيات يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ وهو الذي أنيطت به مسؤولية القيادة العظمى لمسيرة الإنسانية الحرة. . ومع ذلك يحذّره الله تعالى من ثلاثة مخاطر ليس هو بمأمن منها، ومن ثم فلا بدَّ له أن ينشد «الملاذ» عند الله. . . .

في تلك السورة اختص الله تعالى ذاته بأسماء ثلاثة؟

٢٤٨ ـــــــ

القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أن ما فعلته هذه الفئة من الناس، هو أشد ما عرفه التاريخ البشري من تدمير وتفتيت لعرى الوحدة الإنسانية، وتضليل الآدميين وإذكاء لأوار الفتنة العنصرية، حيث كان الناس ـ من قبل ـ أمة واحدة تعيش في كنف السلام والتكافل..

وهي نفس الفئة التي تزعم أنها المسؤولة عن الحكمة والقيادة الروحية للناس، وبينما هم يدركون تماماً ما تحمله نفوسهم من حسد للآخرين وحقد وقسوة عليهم وخيانة لهم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

* * *

لكن...

الحج له دلالات أكبر بكثير مما يمكن أن يستوعبه عقلي ويتفهمه.

كل مرة أذهب فيها إلى الحج أشعر أن معرفتي قد ازدادت وأن رحلتي التالية ستكون تكراراً لما عرفت..

لكن.. لدهشتي فإنّ توقعي لا يصدق..

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

وأنت أيها القارئ العزيز لا تحسبن أن ما قلته لك هو كل ما ستتعلمه من تجربتك مع الحج أو أثناء أداء المناسك . .

كلا ، كلا ، كلا ! !

إنَّ هذا ليس كتاباً يصف لك شعائر الحج . . بل هو مجرد مثيرات لتجعلك تفكر .

هذا الكتاب هو نتاج قدرتي المحدودة على التحليل والتلخيص لعرض رمزي معجز ، حيث أن المهيمن على خشبة العرض هو المهيمن على الكون الكبير .

بوضوح : لقد حاولت أن أصبّ البحر في إناء ! ! !

في كل مرة أذهب فيها إلى الحج أحاول أن أُقَيّم بعض ما استنبطه من مرَّتي السابقة ، وذلك حتى أستكمل تفسيراتي ، ولكني أكتشف مع ذلك فصولاً جديدة وعِبَراً جديدة . .

في المرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى الحج كنت أسائل نفسي : لماذا أحاول أن أحدد ما لم يحدده مدبر العرض ؟ !

هل من الضرورة أن أعرف كل صنم ؟

لقد فعل ذلك مدبر العرض ؛ إن غياب التعريف هو في حد ذاته تعريف .

أليس صحيحاً أن الأصنام الثلاثة تمثل واحداً بينما كل منها على حدة يمثل ثلاثة ؟

إنَّ تمييز الأصنام الثلاثة يحدد القوى الثلاث المرتبطة

ببعضها، وإن غياب الهوية يدل على أن أي واحد منها يختفى في داخله الأثنان الآخران، ومن ثم حين ترمي أحدها اجعل نيتك رميها جميعاً. . .

لكن بعد كل ذلك فإننا بعقولنا البسيطة وعبر تفسير أهل الذكر من الناس كل مرتكز إلى حقله المعرفي واهتماماته، تجدنا نلجأ دائماً إلى التصنيفات من قبيل: الاجتماعى، والفلسفى، والتاريخي. والنفسي. .

أمّا مشرّع الحج ـ سبحانه ـ الذي يعلم أنه ما من ثقافة أو حضارة في أي حقبة من الزمان وعبر أي نظام أو بنية اجتماعية أو طبقة أو علاقات اجتماعية، فإن كل واحدة من القوى الثلاث تكون في موقع سدة الحكم بينهما القوتان الأخريان يدعمانها، . وعندما ترمي واحدة تفتح الأبواب للنصر وتبدأ احتفالك بالعيد! . .

إذاً عندما تبلغ (منى) محملاً بذخيرتك عليك أن تهاجم وتقتل الصنم الأخير. .

بغض النظر عن المكان الذي أتيتم منه: من مجتمعات رأسمالية متقدمة. . أو مجتمعات عتيقة مظلمة متخلفة. . أو أنظمة فاشية ديكتاتورية. . أو مجتمعات حكم الفرد. . فإنكم جميعاً ترمون نفس الصنم، . لكن النوايا تختلف وتتعدد!

الصنم الأخير يدعم الصنمين الآخرين. .

(فرعون) يعطي المشروعية للنهب الذي يزاوله (قارون). .

(قارون) يدعم (بلعم) بماله . .

(فرعون) يدعم (بلعم) بسلطانه . .

(بلعم) يقوم بربط سلطة (فرعون) بالقوة الإلهية المطلقة . .

تماماً كما نفعل حينما تتشابك أيدينا حتى يجد كل منّا السند لنفسه، وفي نفس الوقت ندعم بعضنا البعض . . !

وهكذا ليس مهماً من أي مكان جئت، ولا إلى أي نظام تنتمي ما دمت في مقام إبراهيم وتتحمل مسؤوليته، ونيتك متوجهة لضرب الأصنام الثلاثة . .

ارم الصنم الأخير، وبذلك تنتصر على قاعدة الشيطان، وتبطل إغواءه . .

إذاً! هل رميت الصنم الأخير؟

وفي وجهه؟

وعلى رأسه؟

هل اخترقته الرصاصة؟

سبع رصاصات؟

سبع مرات ترمز إلى أيام الخلق السبعة، وإلى السماوات السبع، وأيام الأسبوع السبعة (جهاد ماض إلى الأبد منذ أن بدأ مع بدء الخليقة متصلاً إلى يوم القيامة، ومعركة لا يتخللها هدنة، ولن تقوم خلالها علاقة سلم مع أي من الأصنام الثلاثة . . كن كأنك

دائماً في منى وفي حالة حرب مع الأوثان).

يا إبراهيم، عندما يسقط الصنم الأخير يتعطل الشيطان ويقتل تحت وابل رصاصك! أيها الإنسان.. يا خليقة الله في الأرض، لقد طردت الشيطان كما فعل الله! وهزمت المَلكَ[1] الوحيد الذي رفض السجود للإنسان..

الآن أنت إنسان حر مثل إبراهيم، وأصغيت للرسالة، وأدركت الحقيقة.. وبعد أن ترمي الصنم الأخير ضحِّ بإسماعيلك..

من أجل الحق وفي سبيل الحب. كل شيء يمكن أن يضحى به... تقدم إلى محل الأضحية بقلب يملأه الحب..

ولتتبع إبراهيم..

خذ إسماعيل بيد (كائناً من كان أو كائناً ما كان.. فهو ذلك الذي يقع لديك موقع إسماعيل لدى إبراهيم) واقبض باليد الأخرى على «سيف إيمانك» الذي ستقطع به عنق إسماعيل أمام عينيك..

تجاوز كل شيء، وانشد عون الله فيما أنت مقدم عليه بكل وعيك وإدراكك وكامل يقظتك وانتباهك.

أيها الإنسان!...

---

(١) هنالك من يرى أن الشيطان (إبليس) كان من الجن العابد، فرفعه الله إلى مصاف الملائكة.

٢٥٤ ـــــــ

شعبك، ونادي فيهم ليؤسسوا أرض السلام، ويعيشوا في مجتمع السلام، ويبنوا بيتاً هو رمز الأمن والسلام والحرية والمساواة والحب. . . للإنسان!!

* * *

٢٥٦ ـــــــ

خليطٌ مجتمعٌ من الكثير من الأعراق والأجناس والألسنة والأنظمة . .

ومع ذلك تجد هذه الثلة منسجمة متآلفة ومتناغمة ثقافياً وعقيدياً وغاية وحباً! . .

إنهم ليسوا مجموعة منتقاة من أصحاب السلطة أو من طبقة اجتماعية معينة، إنهم أنماط منحدرة من كل أنواع الأجناس والطبقات والطوائف . .

إنهم هنا تجمع له مشكلاته المحددة هي ـ على وجه العموم ـ واحدة وإن تعددت؛ فهم الممثلون الحقيقيون لأمم مختلفة يلتقون هنا .

* * *

«الاستطاعة» في الحج تعني قدرتك على الذهاب وعلى فعل ما سبق أن فصلنا فيه القول، وليس معناها أن تكون غنياً كما شاع في الفهم الخاطئ . .

إنَّ الحج ليس ضريبة على الثروة، ولكنه واجب مثل الصلاة . .

إنَّ معنى استطاعتك هو أن تكون قادراً وعندك من الحكمة ما يجعلك تدرك ما الذي تفعله . . إنها نفس الشروط التي يجب توفرها لأداء أي واجب! . .

* * *

# ايام اخر في منى

ما زال أمامك يومان تبقى فيهما بمنى.

أمعن التفكر فيهما في عقيدتك، وفيما فرغت لتوك من أدائه..

بحلول العيد وبعد الأضحية تنتهي المناسك..

لكن لا بدَّ أن تبقى في منى يومين، أو ثلاثة أيام ـ إن كان في مقدورك ـ لا تغادرها، ولا حتى لتعود إلى مكة! لماذا؟! لقد انهزم الشيطان، وقُدِّمَ القربان، وخُلِعَ الإحرام، واحتفلنا بالعيد! لماذا يجب أن يبقى أكثر من مليون من البشر في هذا الوادي ليومين أو ثلاثة؟!.. في هذا الوقت يتاح لهم أن يتفكروا في الحج، ويتفهموا ما فعلوه..

وبإمكانهم ـ كذلك ـ تداول مشاكلهم مع المسلمين القادمين من بقاع شتى من المعمورة، فهو مؤتمر إسلامي عام يضم المؤمنين

ليقرروا ما يصلح دينهم ودنياهم. .

إنَّ مفكري الإسلام ومثقفيه الذين يجتمعون هنا، والمجاهدين في سبيل الحرية ضد الاستعمار والطغيان والفقر والجهل والفساد في بلادهم يتعرّفون على بعضهم ويتداولون مشكلاتهم ويصلون لبعض الحلول، ويشدون أزر بعضهم بعضاً متعاونين متساندين.

إنَّ عليهم أن يدرسوا المخاطر التي تحدق بالأمة، ووسائل مقاومة المؤامرات التي تحيكها القوى العظمى وعملاؤها المندسون داخل البلدان الإسلامية.

إنَّ عليهم أن يعقدوا العزم على محاربة الاستغفال والإعلام والتفرق والضلال والمذاهب الهدامة، وأمراض أخرى كثيرة تهدد كيان الأمة. .

إنَّ عليهم أن يرفعوا راية الجهاد العام خفاقة في أرجاء العالم، من أجل تقديم حقائق الإسلام ومساندة قضية الحرية لكل الشعوب المستعبدة، ومن قبلها لتلك الأقليات المسلمة التي تعاني الاضطهاد من أنظمة غاشمة جائرة. . .

وعبر هذا النسق من التعاون وتبادل الرأي والشعور، تكتسب الأمة المسلمة مزيداً من القوة في جهادها ضد عدوّها المشترك. . .

إنَّ فهماً أفضل لعقيدة الإسلام قد ينبثق عندما تحلّ بعض الخلافات العقائدية بين الطوائف المذهبية للمسلمين.

* * *

٢٦٠ ـــــــ

ولكن هذا الوقت ـ الذي يوجد فيه الناس ـ هو الوقت الذي يعبقه المناخ الروحي، أما غداً ـ عندما يرحل الجميع ـ تعود (منى) مرة أخرى مثل كل البقاع لا يميّزها عن غيرها إلاّ أنها جدباء قفر من السكان.

إنك هنا لتتعلم أنه: «دون الناس» فإن السعي للجنة لا يعدو أن يكون إحدى طرائق الرهبنة المستقبحة، وأن: انتظار العائد المادي المؤجل أسوأ من دفعه لك في الحال؛ لأنه الطمع الذي يحتفظ بشراهته إلى يوم القيامة.

وبكلمات أخرى: إنه نفس سلوك البرجوازي الذي يفضّل التأجيل على أن يدفع له في الحال لأنه يضمن له رصيداً أكبر.

والمنقطع أناني مثل المادي، فالأخير يستعمل تقنياته، والأول يستعمل إيمانه... المادي ينتفع بالعلم ليستمتع بحياته، والمنقطع يستعمل الإله لتلك الغاية..

كلاهما يسعى للهدف نفسه، لكن أحدهما يريده لحاضره والآخر لآخرته.

لكن إسلام إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ يعلمنا أن الله سبحانه يكره المنقطع الأناني:

«من بات ولا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»

صحيح أنك أديت فريضة الحج، وسموت إلى مقام إبراهيم عندما ذبحت إسماعيلك، لكن هذه ليست نهاية المطاف بقدر ما هي بداية واجبك..

٢٦٢ ـــــــ

ولا الدبلوماسيون ولا القيادات السياسية ولا أعضاء البرلمان ولا الوزراء ولا أعضاء مجلس الشيوخ ولا أساتذة الجامعات ولا العلماء ولا المفكرون ولا أئمة الدين. . . كلا! كلا!

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1].

كما يقول (إيمى سيزار)[2]: (ليس لأحد الحق في أن يكون قيّماً على الأخرين).

وكما يقول بروفسور (شاندل): (إن الحديث باسم الآخرين وهم غائبون كذب وعار، إذ إن الله وحده له الحق في التقرير للناس لأنهم خلفاؤه في الأرض)

هذا هو الغرض من المؤتمر الذي يعقد في (منى)، حيث القيَّم هو الله تعالى الذي يجتمع الناس هنا في ضيافته. . .

بعد هزيمة الشيطان والعودة من محل (الهدي) يدعو الله تعالى الجميع ليشهدوا هذا اللقاء، وليجدّدوا وعدهم مع إبراهيم، وليكون الله شهيداً على بذل الوسع في دعم عقيدة التوحيد وتحطيم كل الأصنام الباقية في العالم وتأسيس مجتمع العدل والسلام.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) إيمي سيزار: شاعر وسياسي فرنسي. زنجي الأصل. تأثر بالسريالية، وعبر عن توقه لتحرير الزنوج. دعا إلى الانعتاق من الثقافة الغربية والعودة إلى ينابيع التراث الزنجي. «المصحح».

إنهم الأتباع الصادقون للنبي محمد ﷺ الذي صنع أولئك البشر المفكرين الواعين الذي حملوا مسؤولية الرسالة، وشيدوا المجتمع النموذجي والأمة الشاهدة على قاعدة التوحيد، وساندوا أمانة الحكمة والإمامة والقسط في حياة الناس.

(منى) هي أرض الحب والجهاد والشهادة..

(منى) هي المكان الذي يتواثق فيه الناس مع الله...

إنهم أمة واحدة تتعاهد على فعل الخير ومقاومة الشر في حياة الناس، وعلى تلبية نداء الرسول ﷺ الذي حمل كتاب الله بيد والسيف باليد الأخرى، متخذاً القرار الصائب بمواجهة العدو العنيد والتحالف مع الأصدقاء.

في هذا المؤتمر المنعقد بعيداً عن أقطار تغمر أراضيها دماء القتلى، يدعو رب الناس ملك الناس إله الناس.. يدعو المسلمين من كل فجاج الأرض، ومن مختلف النُظُم السياسية ليجتمعوا تحت سماء هذه الجبال فى حديث حر ينشد التعاون للقضاء على مشكلاتهم.. وهو أيضاً اجتماع علمي، لكنه لا ينعقد في قاعات أكاديمية، ولا يشبه تلك الملتقيات المتكلفة لأساتذة الجامعات وحلقات العلماء وأصحاب التخصصات العالية.

كلا... إنهما يومان تنعقد فيهما حلقة الحوار العلمي مؤتمر روحي وفكري حيث يشارك فيه أي متعلم أو أُمي، أستاذ أو حرفي، قائد روحي أو مزارع بسيط،.... كل من يريد المشاركة له حق الحوار المفتوح.. كل الرتب وكل المواقع وكل الدرجات

وكل الألوان، فقد تركوا الفوارق خلف ظهورهم عند المواقيت!..

هنا الجميع يمثل واحداً... الإنسان.

والكل له ذات الدرجة (حاج!).. هذا هو كل ما في الأمر.

❊ ❊ ❊

لا يوجد في مستويات الرقي البشري مستوى أرفع من مقام (إبراهيم) الذي يُطلَب من الجميع هنا أن يتمثلوا دوره...

ومع نهاية هذه المناسك وقبل أن تعود إلى وطنك يجب أن تبقى يومين آخرين في (منى) بعد العيد مع الناس.. تجلسون وتسألون فيهما أنفسكم السؤال العظيم الخالد نفسه:

**ما الذي يجب علينا أن نفعله من أجل مجتمعنا؟**

لكي تهتدوا للإجابة لا بدّ أن يجلس كل واحد ويفكر في ما قام به أثناء الحج.

❊ ❊ ❊

٢٦٦ ـــــــ

فالله تعالى الذي يملك كل موجودات هذا الكون يتحدث هنا عن الإنسان الذي يضم بين جنبيه النفخة الربانية والطين اللازب أو الحمإ المسنون . .

هذه الثنائية موجودة في الإنسان، ولكنها لا تقوم في الطبيعة . .

إنَّ (منى) هي أرض الحب والإيمان والمستقبل، فحينما تتصارع في داخلك نوازع الخير الربانية وهمزات الشيطان ووساوسه من أجل إسماعيلك تكون (منى) هي أرض آمالك ورغباتك .

ولكن تكون دهشتك حين يأتي يوم نصرك في يوم العيد الدامي، وبدلاً من حفل عيد الميلاد، هناك حفل الفداء من أجل الابن !

إنه عيد الفداء . . . . انظر إلى قيم هذه الأمة وما ينبثق عنها من أعراف وتقاليد وتاريخ وألقاب، إنها لا تعبأ بعلاقة الدم أو الأرض، ولكنها تُعوّل على العقيدة والجهاد؛ فهي أمة التوحيد التي تحمل مسؤولية حرية البشرية من لدن آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

إنَّ أبناءها هم جند الإيمان الذين يجاهدون ـ حتى أنفسهم ـ وقد امتدوا على طول جبهة القتال من (بدر) إلى (منى) . .

إنهم العبيد الذين أدركوا بعمق معنى الحرية ! . .

٢٦٨ ـــــــ

# الهجوم التالي المترتب على العيد

أثناء الهجوم الأول الذي قمت به في اليوم الأول عمدت إلى ضرب الصنم الأخير، وأفسحت الطريق إلى محل الفداء، ثم تحللت من ثياب الإحرام واحتفلت مبتهجاً بانتصارك! . .

في اليوم التالي لا بدَّ أن تعود إلى الرمي مرة أخرى، لكن عليك أن ترمي الأصنام الثلاثة جميعاً. . . .

في هذه المرة تدور راجعاً لتضرب الصنم الأول بادئاً به، ثم الثاني، وفي النهاية ترمي الصنم الأخير.

يومك الثالث هو تكرار لما فعلته في يومك الثاني. .

في اليوم الرابع قد تبقى بمنى وقد تغادرها، فإذا قررت البقاء فيجب عليك عندئذ ـ أن تعود للرمي كما كنت تفعل في يومك الثاني والثالث، وإذا قررت أن لا تبقى فعليك عندئذ أن تدفن بقايا سلاحك في مكان ما تحت أرض (منى). . هذا واجب!

* * *

٢٧٠ ـــــــ

لقد قهرت الشيطان حتى أخرجته من بابك ولكنه قد يعود إليك من النافذة!..

لقد هُزِمَ في خارجك لكنه قد يستيقظ في داخلك..

لقد صرع في الحرب لكنه قد يستحوذ على السلطة في السلم..

لقد هلك في منى لكنه قد يبعث فيك!...

ما الذي أقول؟!..

الإغواء له آلاف الوجوه....

فالشيطان قد ينبذ لأنه كافر، لكنه يعود في هيئة رجل شديد الإيمان..

وقد يطرد لأنه مشرك لكنه يتمثل في ثياب التوحيد...

قد تدفنه في بيت الأوثان لكنك تلقاه منتصباً أمامك على المنبر..

قد تقتله في بدر لكنه يعود في كربلاء...

قد يطعن في غزوة الخندق بالمدينة لكنه يظهر في مسجد الكوفة...

قد تمسك بيدي الصنم هبل في أُحد لكنه سيرفع المصاحف على أسنّة الرماح في صفين.

يجب ألاّ تكون ساذجاً وتظن أن الحرب قد انتهت عندما

٢٧٢ ـــــــ

* لا تكن فخوراً، حتى بعد أعظم الانتصارات. .

* ما زلت في خطر، حتى لو كنت إبراهيم نفسه، وحتى بعد أن تضحي بإسماعيلك. .

الشيطان له أوجه عديدة وأقنعة لا حصر لها وحيلاً مثل الأقنعة. .

لقد حاول خداعك مرة بحياة إسماعيل، واليوم قد تنخدع له بفخر التضحية به!

كن دائماً مستعداً للقتال ورمي الجمرات!

ما دمت في (منى) إرم رصاصاتك على الأصنام. .

إنَّ (منى) هي أرض الإيمان والحب، ومكان آمالك وحاجاتك، وهي جبهة كل أمجادك وانتصاراتك الكبيرة، وهي حجك وذروة كمالك ومثال حياتك. .

إنَّ (منى) هي الخطوة الأولى نحو التوحيد، وهي في الوقت نفسه الكمين الذي يتربص فيه الشيطان ألد أعداء الإنسان. . . !

أنت دائماً في (منى) أو (منى) دائماً فيك!

أنت دائماً في خطر ما دامت الطواغيت مستعدة دائماً للتمرّد.

بعد العيد وأثناء بقائك في (منى) إرمِ الأصنام كل يوم. . .

* * *

* كن دائماً مستعداً للجهاد في سبيل الإيمان والحرية طوال عمرك. .

* الجهاد في سبيل الإيمان لا يكون من أجل أن تحكم أو تستحوذ على السلطة . .

* بهزيمة العدو لا ينتهي جهادك . .

* احتفل بعيد الفداء لا بالنصر . .

* اخلع زي الحرب، لكن لا تلقي سلاحك . .

* النصر قد يتحقق يوماً لكنه يوشك أن يضيع بالإهمال . .

* قد تكفي رمية واحدة لهزيمة العدو، لكن عليك أن ترميه بسبعٍ لكي تتأكد أنه مات .

* قد يكفي هجوم واحد وسبع رميات لتستولي على قاعدة العدو، لكن حتى تقضي عليها تماماً تحتاج لأكثر من هجوم وترمي أكثر من سبعين رمية . . .

* اطرح السلاح «الحصى» الذي جمعته في المشعر للقسمة . .

كم معك؟

سبعون

هنا أيضاً «سبعة» و «سبعون»!

في اليوم الأول (العاشر من ذي الحجة) يهاجم الصنم الأخير بسبع طلقات . . وفي اليوم الثاني والثالث ثلاث هجمات وسبع طلقات لكل صنم :

ست مرات × ٧ حصيات = اثنتان وأربعون حصاة + سبع في اليوم الأول الحاصل يكتمل بتسع وأربعين طلقة أي رقم فردي!

الهجوم الأخير في اليوم الرابع (الثالث عشر من ذي الحجة) اختياري . .

إنَّ لك فيه الخيار كما تشاء . . .

إذا كنت لا تزال تستشعر الخطر فلك أن تبقى ويجب عليك عندئذ أن ترمي مثلما فعلت في اليومين السابقين .

وبهذا يكتمل عدد ما رميت سبعين حصاة :

تسع وأربعون حصاة + واحد وعشرون حصاة = سبعون حصاة .

من أجل أن تمنع الشرك من التنكر في ثياب التوحيد عليك أن تجاهد ثلاثاً وعشرين عاماً وتهزم الكفر وتحطم أوثان الأرستقراطية وتنتصر على جاهلية قريش . .

ويجب عليك أن تحطم القواعد الثلاث المتمثلة في : الاستعمار والرأسمالية والنفاق . والتي هزمت ـ من قبل ـ في بدر وأُحد والخندق[1] . .

---

(١) * بدر موقعة انتصر فيها المسلمون على مشركي قريش ٣هـ/ ٦٢٤م .
* أحد : موقعة بين المسلمين ومشركي قريش استشهد فيها عمُّ الرسول حمزة على يد الوحشي الذي أرسلته هند (أم معاوية) زوجة (أبو سفيان) . وكان خالد بن الوليد هو صاحب الجيش الذي هزم المسلمين وجرح النبيﷺ ٣هـ/ ٦٢٥م .
* الخندق : وقعة تسمى بالأحزاب، حاصر بها المشركون المدينة بقيادة أبي سفيان . فأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق فامتنع به المسلمون وارتدّ عنه المحاصرون وعادوا إلى مكة ٥هـ/ ٦٢٧م .

٢٧٦ ـــــــ

# الرسالة الأخيرة

إنَّ أفعال الحج هي نقل لتلك الرسالة التي حملها لنا القرآن بالكلمات . .

قبل أن تشرع في الحج ينصح بأن تقرأ القرآن ـ على الأقل ـ مرة واحدة، وأن تتعلم درساً من سورته الأخيرة . . .

لماذا السورة الأخيرة؟!

إنَّ آيات السورة الأخيرة تحذر من الخطر، بينما آخر أفعال الحج هو الرمي . .

في خاتمة الحج أنت مقدم على رمي الأصنام الثلاثة، بينما خاتمة القرآن تنكر القوى الثلاث .

في المرحلة الأخيرة من الحج يُحذَّر المسلم من (الخطر)، بينما تحذرنا السورة الأخيرة من (الشر) . . يا للغرابة!! . .

إنَّ القرآن يأتي إلى نهاية، بينما (الشر) لا يأتي إلى نهاية . .

والنبوة تختتم، بينما الخطر يبقى..

في السورتين الأخيرتين من القرآن يتحدث عن «التماس الملاذ من الشر» وهي تحذير لمحمد ﷺ خاتم أنبياء التوحيد الذي أكمل نبوة إبراهيم عليه السلام، واليومان الأخيران في الحج يمضيان في (منى) حيث يجب على الواحد منا أن يقاتل، وحيث حذَّر الله إبراهيم عليه السلام «أبو الأنبياء»....

أنت..!

أيها السائر على طريق محمد ﷺ وملة إبراهيم عليه السلام، عليك أن تفهم الإشارات وليس فقط أن تقلد الحركات..

إلى أين ستذهب بعد (منى)؟!..

أيها الحاج..!

قبل أن تغادر (منى) إلى ديارك، دعنا نجلس ونقرأ السورتين الأخيرتين من القرآن لتكتشف أي خطر كان نبينا المنتصر يحذّرنا منه..

دعنا نصغي إلى ذلك الوحي، لنعرف ما الذي أخبر الله به رسوله الحبيب ﷺ حتى ينشد الملجأ منه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾.

مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾.

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾.

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ .

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1] .

هنا يشير الله تعالى إلى الأعداء الأجانب والغرباء عنك وعن بلادك الذين يجب عليك أن تحاربهم . .

ففي ظلمة الليل حيث يستحيل كل شيء إلى غموض . . يمتد ظلام الشر ويغطي وادي منى ومشهد عرفات . .

وتضيع في حلكة هذا الليل البهيم . .

تأمل المشعر الحرام ومثال الإيمان في منى .

في الواقع أنت في منى لكنك لا تدرك ولا تبصر قضايا هامة . . معك الحب لكن لا تعلم لمن! . .

ومعك الإيمان ولكن لا تدري بمن!

ضحّيت بابنك، لكن ليس في سبيل الله، وإنما أمام الشيطان! . .

الظلام في كل مكان!! . .

نعم رميت . . ولكن لم ترمِ الشيطان، وإنما الملائكة!! . .

وذبحت . . ولكن ذبحت إنساناً وليس كبشاً!! . .

وأديت السعي . . ولكن ليس رغبة وإنما تجاوباً مع شد لجام العدو!!

---

(١) سورة الفلق .

٢٨٠ ـــــــ

العميل أو (النفاثة) الذي يعمل خفية من أجل سيده أو من أجل المال . . .

كلا! . . إنه من المعارف أو زميل أو قريب أو مخادع أو دمية تقترف الخيانة وتتظاهر بالصداقة . . .

وهو قاتل يزعم البراءة، أو مفسد لا تحوم حوله الشبهات . . .

أو هو ذلك الذي يصنع المتاعب لا إرادياً مدفوعاً بأشد الأمراض استعصاء على الشفاء: الحسد . . .

هذه العقدة تظلل الثورات المنتصرة، وتصدِّع جند الحرية في تفانيهم وفدائهم، وتبث الأحقاد الدموية بين الأصدقاء . .

والمحصلة هي أن يصبح المؤمن الصادق دمية بين الكفار . .

إنَّ الكفار ليحكموا هذا الأداء بذكاء يحجب عن الناس الوعي بخططهم[1]! . .

ولهذا ترى أن خيمة الطغيان المظلمة قد نصبت في (منى) بالقرب من الكمين الذي يتربص فيه العملاء! . .

لكن ماذا عن ذلك الحاسد المريض الذي لا يبدو عليه أنه العدو؟! . .

---

(١) هناك حقيقة يشير إليها المؤلف وهي عملية توجيه تيارات الفكر والحركة داخل البلدان الإسلامية والعمل على تطويرها لصالح دول العالم الأول (أوروبا وأمريكا) وتجنيد العملاء لهذا الغرض الدقيق الخطير والمستمر.

٢٨٢ ـــــــ

كما يلاحظ الإمام الفخر الرازي[١] أن سورة الفلق تشير إلى صفة واحدة من صفات الله وهي: الرب.. بينما سورة الناس تشير إلى صفات ثلاث..

هذه دلالة على أن هناك عدواً أخطر يحتاج إلى جهد أكبر حتى يتم التخلص منه.

في سورة الفلق يصف الله تعالى نفسه بـ: رب الفلق.. أي رب الفجر.

والآيات في السورة تصف الظلام، وقوى الظلام في عدائها للشمس، ولكنها ستموت بالشروق..

أمّا في سورة الناس فإن الله تعالى يصف نفسه بـ: الرب، وبـ: الملك، وبـ: الإله وهي ذات القوى الثلاث أعداء الإنسان التي تعيش بينهم وتدَّعي أنها ربهم:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

سورة الفلق تشير إلى هذا العالم، وإلى المجتمع حين تسيطر عليه قوى الظلام من الذين يعملون في السر ـ وعن إدراك ـ لغسل أدمغة الناس..

---

(١) الرازي: (١١٤٩م ـ ١٢٠٩) فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي: إمام مفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول من تصانيفه الكبرى «مفاتيح الغيب» في ثمانية أجزاء في تفسير القرآن و«المناظرات» ضمّنه مجادلاته مع المعتزلة وغيرهم. «المصحح».

٢٨٤ ـــــــ

الحقيقة بين ثنايا الكتب والمخطوطات أكثر من نشدانها في الواقع، فإن الشرك والتوحيد لا يمثّلان نظريتين فلسفيتين، ولا مناظرة تجري في معبد..

لكنهما يعيشان ويرتّبان آثارهما في حياة صاحبهما وفي الطبيعة المحيطة به..

وهما ـ التوحيد والشرك ـ في قلب حركة وكفاح الشعوب: الاجتماعي والاقتصادي، وعبر كل الحقب والأزمنة..

وبكلمات أخرى فإن الشرك هو العقيدة التي سيطرت في التاريخ..

نعم إنه أفيون الشعوب!!

ومن الناحية الأخرى فإن التوحيد هو الدم والعون والفطرة والمرشد للشعوب..

إنه العقيدة التي أوذيت في التاريخ.

إنه لمن أعظم وأسوأ وأخفى مآسي الإنسانية، والتي لم تُفهم بعد جيداً من قبل الكثير من المفكرين **استعباد الشعوب بذات وسائلهم للتحرر! وتقتيل وتعذيب الناس باسم مصدرهم الوحيد للحياة الكريمة!**.

كيف؟!..

بالخلط بين عقيدة وأخرى؛ شأن الشرك الذي يتخفّى في ثياب التوحيد، والذي تمثّل في أكبر منافقي التاريخ: إبليس المتنكر في صورة القديس!

التوحيد في خدمة الشرك . . والأب الروحي ممثل الشيطان . . وأخيراً الخنَّاس المخادع عدو الناس .

في سورة الناس تتكرر كلمة الناس عدة مرات . .

من هؤلاء الآباء الروحيين الذين يعيشون بين الناس ويملكون هذا السلطان النافذ؟

من هؤلاء الطغاة الذين يعصون الله ويستخفُّون بحقوق الناس؟ . .

للمرة الثانية تظهر الطواغيت الثلاثة : الثالوث! . .

التي هي ملك لله وحده كما وُصِفَت في سورة الناس .

إنهم يغتصبون المواقع الثلاثة التي هي :

التوحيد : وحدة الصفات . .

الشرك : تعدد الصفات .

التثليث : قابيل القاتل الذي يظهر بثلاثة أوجه ويحكم أطفال هابيل . .

هناك قابيل واحد، وفرعون وقارون وبلعم هم وجوهه . .

إنهم ليسوا ثلاثة أشخاص، ولكن ثلاثة أوجه .

المدهش أنه في كل تاريخ التثليث يرمز للإله دائماً برأس واحد له ثلاثة أوجه!! . .

* * *

في غابر الزمان كان الناس أمة واحدة متآخية، وكانوا شركاء في أنهار الأرض وغاباتها وكلٌ له نصيب مساوٍ لأخيه في خيرات مائدة الطبيعة الحرَّة.

صيد البر وصيد البحر كان وسيلة جلب الطعام اللازم للبقاء..

والله وحده هو المالك، والبشر كلهم متساوون.

لكن.. جاء قابيل وصار مزارعاً وادعى لنفسه ملكية الأرض..

ومن ثم استعملت الحواجز والضوابط..

لقد خرقت الوحدة!

واستبدلت عبادة الله الواحد بعبادة الآلهة المتعددة..

وظهر قابيل بثلاثة أوجه حيث عبده الناس من دون الله.

مثلث مشؤوم: التثليث..

إنه مقبرة كل الرسل والمجاهدين والشهداء.

مقبرة تتمثل في أغلال التهديد المشؤومة التي تحاكي سلاسل العبودية التي استغلت ـ من قبل ـ لإخضاع عباد الله المغلوبين ليكونوا عبيداً للحاكم..

إنَّ الثالوث أشبه ما يكون بالشركاء الثلاثة في شركة واحدة:

حيث يقوم الأول بالدعاية والإعلان..

٢٨٨ ـــــــ

إذا أردت أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر يجب عليك؛ أولاً أن تكون محقاً وعالماً وذا تأثير، وإذا استشعرت أن ذلك خطر عليك فإنك غير ملزم بالقيام به)..

هكذا الأصدقاء الثلاثة وثيقي الصلة ببعضهم..

وقابيل ـ صاحب الأقنعة الثلاثة ـ هو إله التثليث الأبدي..

هؤلاء الثلاثة لا يهم أن يعملوا تحت راية الإسلام أو تحت راية العداء له!..

باسم التوحيد أو باسم الشرك!..

أولئك هم الذين باسم الإيمان صنعوا الدساتير والقوانين ليتحكموا في الناس أبد الدهر وفي كل مكان!..

الطواغيت الثلاثة هي وجوه قابيل الثلاثة..

ذلك المالك الذي قتل أخاه هابيل الراعي، وأصبح هو من بعده مسؤولاً عن أطفاله اليتامى وأضحى القاتل وريثاً للضحية!..

الغريب أن كل الأنبياء الإبراهيميين والذين دعوا إلى التوحيد والعدل والورثة الحقيقيين لهابيل كانوا جميعاً في مراحلهم الأولى رعاة، وكذلك نبينا محمد ﷺ آخر هذه السلسلة من الرسل كان راعياً للغنم بقراريط[1]، وقد قال: «ما من رسول إلاَّ رعى الغنم».

وهذه سنّة قابيل وأبناءه الثلاثة (الذئب والثعلب والفار)

---

(١) قراريط مكان بالقرب من مكة.

وسعيهم الدائم في التاريخ لممارسة الاستبداد أو الاستعمار أو الاستغلال لأبناء هابيل (الناس) وسوقهم بزيّ راعي الغنم.

هذا يفسر لنا معنى ظهور «راعٍ» أو «أمي» كل حين ينهض من قلب الصحراء ويترك قطيعه ويصبحَ قائداً ومحرراً لضحايا سلطان قابيل..

وهكذا يكون الرسول راعياً وليس فيلسوفاً أو متعلماً أو زعيماً في أحد مراكز الحضارة أو أحد معاهد العلم أو أحد التجمعات العلمية أو أديرة الدين!..

إنهم ينهضون ليقرعوا بعصيّهم رؤوس الذين يدعون أنفسهم «آلهة الأرض» من نوعية الذي قال: أنا ربكم الأعلى.

وهنا ندرك جمال المعنى الذي تحمله كلمات النص القرآني:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[1].

يساند إنسان مسؤول قضية العدالة ويدعو في الناس بالتكافل والتآخي والجهاد في سبيل العدل وأن يكونوا على وعي بما يدور في مجتمعهم، حتى تتحرك القوى المسيطرة في الحال بدوافع ملء القلب لتغتال هذا الفرد.. أو تغتال شخصيته.

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

لكن بعد جيل أو أكثر هؤلاء القتلة أنفسهم سيتفجّعون على الفقيد ويصبحون ورثة رسالته ويستأنفون قيادته:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.(١)

ومهما يكن الأمر، فإذا كان النبي هو المنتصر في المعركة فإن المعارضة ستهادنه مؤقتاً، وتبدل مواقفها وتغير أقنعتها، ريثما يتم لها الانتصار وترث كتابه وسيفه بعد أن تدور العجلة بجيل جديد.

* * *

* هناك قابيل واحد بسبعة وجوه وسبعة ألوان وسبعين قناعاً وسبعة آلاف اسم وسبعين ألف حلية!

* هناك قابيل واحد هو القاتل الذي اغتال أخاه!

* هناك قابيل واحد هو الذي يملك وكل الناس مملوكة له!

* هناك قابيل واحد هو الحاكم وكل الناس عبيد له!

* هناك قابيل واحد هو الذي صنع عدوّين من أخوين!

* هناك قابيل واحد: يجعل المتساوين غير متساوين!.. هو الذي قسَّم الناس إلى عرقين، والمجتمعات إلى طبقتين، وجعل من

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

٢٩٢ ـــــــ

السيادة للإقطاع، وأضحى الأرقاء فلاحين، ثم هزم الإقطاع بثورة عظيمة[١]، ولكنها تبدلت إلى رأسمالية وصار الفلاحون عمالاً في المصانع.

بعون من الله وقوته أغرق موسى عليه السلام (فرعون) في البحر ووارى (قارون) باطن الأرض، وسخّر عصاه في مقاومة السحرة، ولكن بعد حين عاد فرعون الذي غرق في البحر للظهور مرة أخرى وخرج من نهر الأردن. . لقد سمى نفسه «شمشون»[٢]! وحمل عصا موسى بدلاً من السوط، أما سحرة فرعون فقد أصبحوا أحفاد هارون ورفاق موسى وحملوا الكتاب المقدس بعد أن تخلوا عن حبال السحر التي كانت بأيديهم، وصار «بلعم باعورا» هو الزعيم الروحي!، وقارون استولى على الكنز وأضحى أميناً على ملة التوحيد!، ثم تعاضد ثلاثتهم: «فرعون وقارون وبلعم» وحولوا فلسطين إلى أرض الميعاد، وصار الأقباط القدماء هم الإسرائيليون الجدد!. .

ثم ظهر عيسى عليه السلام ونسخ اليهودية وقضى على إمبراطورية الرومان، لكن قيصر بدل اسمه إلى البابا، وحلّ أحبار النصارى محل الإكليروس وكاردينالات الفاتيكان، حيث دعي القصر كنيسة! وقام «جوبيتر»[٣] مقام عيسى عليه السلام.

---

(١) يقصد الثورة الفرنسية.

(٢) شمشون: من قضاة العبرانيين في القرن الثاني عشر ق.م. اشتهر بقوته الجبارة التي تكمن في شعره. احتالت عليه «دليلة» فقصّت شعره وحرمته من سرّ قوته وسلّمته لأعدائه.

(٣) جوبيتر: كبير آلهة الرومان. هو زفس اليونان. له هيكل على الكابيتول وآخر في بعلبك «المصحح».

٢٩٤ ـــــــ

وأنصاره، وقاوم منهم من قاوم بغي الخلفاء لمدة قرنين ونصف، إلاَّ أنهم جميعاً راحوا في عداد الشهداء..

لقد تصدوا لتقاليد الجاهلية وأرستقراطية الخلفاء، ونذروا أنفسهم أتباعاً لعليّ، وبذلوا أرواحهم للقضاء على النظم الفاسدة الجائرة، وكانت شعارات حزبهم الشيعي:

الإمامة والعدالة..

لكن فجأة.. أصبح الخليفة شيعياً!!!

وتبوأ ملك الصفويين[1] مكان القيادة من الشيعة، وصار بيت الخليفة هو قصر السلطان..

وهكذا دواليك.....!

* * *

وفي أوروبا استطاعت الثورة العلمية أن تهزم الكنيسة، وأخذ العلم مكانة الدين، وتحولت مدارس اللاهوت القديمة إلى الجامعات الحديثة، ونفي المؤمنون إلى أركان المعابد القصية بواسطة العلماء...

وقد ترك (بلعم) الكنيسة وظهر في الجامعة!

الثورة الفرنسية ألغت الإقطاع كنظام، لكن (قارون) الذي

---

(١) يفرق المؤلف بين التشيع الصفوى والتشيع الحقيقي، فيدين الأول وينكره ويرى أنه تشيع منحرف ظالم تجب محاربته ومحاربة آثاره، ويؤيد الثاني لأنه يعود إلى المبادئ الإسلامية الأصيلة المستمرة من النبي محمد ﷺ والذين اتبعوه بإحسان.

٢٩٦ ـــــــ

إلى مستهلك مجنون، ومن ثم تَجِدُ نفسك تنفق كل ما كسبت من أجل أن تعيش حياة الرفاهية، والنتيجة المترتبة هي الحصار المستمر بالديون، والاستغراق في العمل طيلة اليوم بلا جدوى ومن أجل لا شيء.

هل هذا هو ما نسميه: حياتنا؟!

أن تعمل وتعمل حتى تحصل على مزيد من الرفاهية، وفي الوقت ذاته تقتل نفسك بالعمل ليلاً ونهاراً، ثم تجدك تجرجر رجلك متخلفاً سنوات إلى الوراء!!!

كل قيم الإنسانية والتحرر تمت التضحية بها على الطريق الذي ينشد الرفاهية... لقد بيعت حياة البساطة واليسر ليُشترى بثمنها حياة الترف..!

وأخيراً.....

إنْ لم يُجْدِ كل ذلك: فهناك الإعلام الطاغي بالجنس وموسيقى الجاز (الصاخبة العنيفة) وهناك الهيروئين، والماريجوانا، و L.S.D، وغيرها من آلاف الطرق الشيطانية الأخرى.

بالخطأ أو الصواب يتمّ استيعابك حتى يبقى عقلك مشغولاً، وتمنع من التفكير في حاضرك وتُدفَع في شُعَب الضلال مؤمناً أو غير مؤمن!..

* * *

نحن يتامى التاريخ المساكين المقهورين في الأرض..

٢٩٨ ـــــــ

الطغيان وورثة المستضعفين في الأرض. .

وهكذا كانت تسير الراية وترسم على الأرض الخط الأحمر القاني بدماء الشهداء.

وفي المقابل والنقيض تمضي راية الكفر التي تجسد القوة والجهل والشراهة للدماء من يد إلى يد حتى تبلغ دائماً آلهة الزيف: الطواغيت الثلاثة. .

الإيمان والكفر ليسا عصبية، ولا تشتيت للوحدة ولا هما تصور بسيط أو حجة من حجج المتصوّفة[1] والفلاسفة، ولكنه التوجيه الذي يؤدي بالبشرية إلى سبيل الرشاد والرفعة، أو يؤدي بها إلى سبيل الضلال والغي. .

إنَّ معنى هاتين الكلمتين: «إيمان وكفر» واضح الوضوح نفسه الذي نراه في الفرق بين الكلمتين «عدل. . وظلم».

أمّا بقية النعوت والأوصاف فهي زائفة وخاطئة، وقصد بها أن تشكل علينا وتخدعنا.

كن حذراً حتى لا يخدعك الزيف. .

إنَّ التاريخ مليء بالنفاق لدرجة أنه أباح لأحفاد قابيل

---

(١) التصوّف: فلسفة كانت وليدة نزعات الزهد القوية التي ظهرت بوادرها في صدر الإسلام، تساندها آيات من القرآن الكريم تحضّ على النسك. فكان الزهد حركة احتجاج ضد التحلل الأخلاقي، وثم أصبحت فيما بعد عدة فرق على رأس كل فرقة «إمام» يسمى بشيخ الطريقة وتعرف باسمه. «المصحح».

٣٠٠ ـــــــ

ابحث في القرآن مرة ثانية تجده يخبرك بجلاء ووضوح، ليس بصورة نظرية فلسفية ولا بلغة معقدة ولا حتى بمصطلحات مركبة من حواش لاهوتية..

بل نزل بكلام بسيط يستطيع أن يفهمه حتى الأمي من الناس:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ۖ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[1].

نعم! قاتلوا أولياء الشيطان.. الطواغيت الثلاثة الزائفة.

يا من تريدون أن تنصروا الله..

يا من تحمون أنفسكم من الشيطان الثابت بالحكمة والوعي..

يا من تقاومون إغواء الشيطان وحيله بالتقوى[2]..

إنَّ العدو كالعنكبوت الذي ينسج بيته من المال والسلطة ممهداً الطريق لاصطياد البشر، ثم مص دمائهم.

لا تخف من الموت، ولا تهرب، ولا تؤجل المعركة، بل تزود بالتقوى وعندها لن تواجه أثراً لخطر[3]..

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٦.

(٢) التقوى هي أن تتقي، وليس أن تهرب كما شاع في الفهم السلبي الذي انحسر أزاءه المعنى الإيجابي السليم.

(٣) في كل آيات القرآن يوصف الشيطان بأنه عدو خطير وقوي، إلاَّ في سياق هذه الأية حيث ورد ذكره موسوماً بالضعف.. لماذا؟.. ذلك لأن القرآن هنا يتحدث عن القتال ويخاطب المجاهدين الذين لا تعني لهم أنظمة الطغيان أكثر من بيت=

٣٠٢ ـــــــ

يا من خطا على مقبرة الصنم الأخير: طاغوت العقبة..

يا من سما إلى ذروة الحرية بالتوحيد....

يا من هزم الشيطان في أرض منى..

أيها السائر على سُنّة إبراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم... كن يقظاً وتزوّد بأقصى انتباه..

إنك على خطر دائم: خطر قابيل والخوف من عودة الآلهة الزائفة..

الرسول في خطر، ورسالته في خطر، فكن حذراً من الطواغيت، وانشد الملاذ عند:

ربّ الناس.... ملك الناس... إله الناس

حتى الآن هناك ثلاثة أوثان تمثل شيطاناً واحداً!.

قابيل واحد.. لكن:

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

من.. أو ما هو «الوسواس»؟!

القاموس يشير إلى ذلك الذي يهمس بالشائعات والأراجيف أو الإيحاء بها..

وكذلك يعني «الحالة السوداوية» ذلك المرض الذي يقتحم الذهن ويقلب وعي الإنسان إلى شعور باللامعنى.

٣٠٤ ـــــــ

ما أوضح التعريف الذي أعطي لها، لكنها اليوم أشد ذكاء وأشدّ سحراً. . . .

هذه الطواغيت الثلاثة خفية، ولكنها تظهر وترى. .

إنها تذهب لتبدل ألوانها وتعود.

قد تهزم. . ولكنها تنهض مرة أخرى. . . . .

اليوم الرأسمالية والاستعمار المباشر يبدلان جلدهما ويظهران في ثوب الاستعمار الجديد، ويعود الطواغيت الثلاثة لاستلاب البشرية من جديد، وغسل الأدمغة بمعونة الخبراء والتكنولوجيا المتقدمة. . كما يقول البروفسور شاندل:

(إنَّ الخطر الأكبر على البشرية اليوم ليس تفجير القنبلة النووية، ولكن محاولة مسخ الطبيعة البشرية).

عناصر الإنسانية في البشر تدمر في سرعة هائلة بما ينتجه التسابق غير الإنساني، ويتحول الإنسان إلى آلة في مظهر بشر لم يخلقها الله ولم تنشأ في الطبيعة! ويصير الإنسان عبداً لم ير سيده ولم يعرفه، ولا حرية له سوى بذل وسعه ليكون العبد الأفضل.

لقد تمت مبادلته بالمال، لكنه هو نفسه الذي دفع الثمن! وغدا واقفاً لساعات في طابور طويل أمام أوكار اللصوص[1] الذين ينتظرون عودته حتى تتم سرقته.

---

(١) إشارة إلى البنوك.

٣٠٦ ـــــــ

مأساة اليوم هي إحدى نتائج الاغتراب[١] الذي يعني أن تكون غير قابل للصداقة ولا مبالياً!.

وهي حالة غير صحية تغطي على وعي المرء وشخصيته الحقيقية...

اختفت بالتدريج صور الطغيان السياسي والتفرقة الاجتماعية وطرق الاستغلال الغربي القديمة، ولكنها عادت في أشكال أبشع، كما تختبئ اليوم الأنظمة الرأسمالية تحت أقنعة الليبرالية والديموقراطية..

انتهى زمن السلب والنهب التي مارسها التتار وطبقها قانون جنكيزخان المسمى بالياسق، ولم نعد نرى طغيان وبربرية التعذيب التي ارتكبها تيمورلنك وهولاكو[٢]..

ولكنها عادت اليوم في مظهر أشد خداعاً باسم التحديث والحضارة، حتى تخفي الوجه الحقيقي للاستعمار.

اختفى هذا النمط من الحكام المستبدين محترفي القتل من قدماء الاستعماريين في ثنايا العالم الثالث، ولكن نظمهم الاقتصادية والسياسية وعلاقاتهم الاجتماعية والتعليم والفن والأخلاق والحرية الجنسية والمذهبيات والإعلام الدعائي والأدب والموضة والجنون

---

(١) ترجمة لمصطلح (Aliénation)

(٢) التتار قبيلة من أشد القبائل وحشية، وجنكيزخان قائد هذه القبائل، والياسق قانون هو خليط من الأديان السماوية والأديان الوثنية والأهواء الشخصية، وتيمورلنك وهولاكو كلاهما قائد مغولي من التتار حكما بعد جنكيزخان ومن ذريته.

٣٠٨ ـــــــ

الأنظمة (قد تشعل النار في السوق كله إذا أرادت منديلاً)[١].

إنهم يعرفون كيف يمسخون العلم ليبلغوا به غايتهم، وكيف يطوّرون الجهل باسم الحضارة..

إنهم يعرفون كيف يوظفون الجنة والوسواس لإفساد إيمان الأمم ومعتقداتها وإرادتها ووعيها، ويتركونها خالية الوفاض فارغة القلب، ومن ثم تتهيأ للدخول في حالة الاغتراب، حيث ينظر المرء إلى ذاته بسلبية وسوء ظن، وحيث تكون عملية مسخ الناس محكمة تؤدي بهم حتماً إلى أن يكونوا مجرد مستهلكين مقلدين ولا شيء سوى ذلك[٢].

* * *

اليوم.. هناك ثلة من أهل الوعي ـ العاملين من أجل الإنسان ـ الذين لا تحدّ نظرهم التصورات التقليدية الطائفية، ولم تسبق إلى عقولهم المشكلات المحلية أو التحيزات التاريخية أو المهنية أو التعليمية أو الأحوال السائدة..

وهؤلاء لم يقنعوا بدور المراقب للعلميات السياسية المتقلبة، كما لم يكتفوا بإصدار التقويمات السطحية لما يقع للناس.

---

(١) غالباً هذه عبارة مقتبسة من نص مسرحي شهير.

(٢) تحدث المؤلف عن هذه الحالة بإسهاب في مؤلفه «العودة إلى الذات» الذي ترجمه المرحوم الدكتور إبراهيم دسوقي شتا، والكتاب سيصدر عن دار الأمير بحلّة جديدة هذا العام. «الناشر».

٣١٠ ـــــــ

للكثيرين رؤيتهم بعد أن غيروا وسائلهم من سلاسل العبودية المادية إلى التسلل في الخفاء، أو الكمون داخل القوى الغامضة والوسوسة في القلب، وكل ذلك في هدوء وستر. . يلجون إلى العقل ويربكونه ثم يغيرون الشخصية ويمسخون شخصاً في شخص آخر وهذا هو الاغتراب! . .

نعم! الخطر يرقد هناك في مكمن كأسوأ ما يكون. . . .

ليس خلف الصخر أو في شعاب الجبال، ولكن في أعماق قلبك أو ضميرك. .

إنَّ الكمين لم ينصب من أجل اقتناص حياتك ومالك، ولكن من أجل إيمانك وإنسانيتك ومعرفتك وحبك ونصرك وجهادك وميراثك من تاريخك وطريقك، حتى لا تكون مثل إبراهيم، ولا تبقى في السبيل الذي يقربك من الله تعالى.

عدوك ليس دائماً مسلّحاً أو في شكل عسكري، وليس بالضرورة أن يكون أجنبياً معروفاً. . فقد يكون أنظمة، أو مشاعر أو خواطر، أو ملكية، أو أسلوباً في الحياة، أو نوعاً من العمل، أو الاستعمار، أو غسل الأدمغة باسم الدين، أو الاستغلال، أو العلاقات الاجتماعية، أو الدعاية ووسائل الإعلام. . .

وقد يكون الاستعمار الجديد، أو البيروقراطية، أو التكنولوجيا، أو التسيير الذاتي. . وفي بعض الأحيان هو الاستعراض والقومية والعرقية. . وفي أحيان أخرى النازية البرجوازية والعسكرية! . .

٣١٢ ـــــــ

ورفض عبادته، سوى أن الشرك الجديد له آلهة أكثر حقارة بكثير من أصنام الشرك القديم (أصنام عصر الجاهلية)!

العرب القدماء كانوا يعبدون أصناماً صنعت من الذهب ورصعت بالجواهر، وكانت أصنامهم رموزاً للقوة والجمال والوفرة والخير والإحسان. . وبذلك كانت موقرة ومقدسة، أما الشرك الجديد فهو اليوم أشدّ وضاعة من أعضاء جسد الإنسان السفلي. .

وقد بلغت الآلهة الثلاثة الزائفة الأبدية اليوم أعظم ما بلغت من الطغيان. .

حيث لم يعد فرعون فرداً، وإنما نظاماً. .

ولم يكن قارون واحداً، ولكن طبقة. . .

أمّا (بلعم) فقد أقلع عن كلام الإيمان، وصار يتحدث عن العلم والتكنولوجيا والفن والأدب!. .

من العجيب أن يتحدث القرآن في السورة قبل الأخيرة «الفلق» عن شياطين ثلاثة لها خاصية واحدة فذة، بينما في السورة الأخيرة «الناس» يتحدث عن شيطان واحد له ثلاث شخصيات: الرب، الملك، الإله. . . وهذا أشد خطراً. . .

الشياطين الثلاثة هم تعبير عن القهر وغسل الأدمغة والخداع والاغتيال والخطايا الجسيمة. . . وهي الأشياء التي تسيء للإنسان وحقوقه وحريته وتستعبد الناس وتستبقيهم فقراء وجهلة، وبطريقة أو بأخرى تضغط الناس وتستبقيهم تحت وطأة ثقيلة من هذه المآسي. .

٣١٤ ـــــــ

«والخناس» هو ممثل هذه الأصنام الثلاثة . . وإغوائه أشد دماراً ومسخاً . .

* * *

يعلمنا كتاب الوحي الكريم في السورة الخاتمة أن الوسواس أكبر خطراً من الأصنام الثلاثة، وأن الوعي الرباني هو أن نقطع الطريق على الليل، ونزيح سدوله بالفجر الذي نقاتل فيه القوى الثلاثة التي استعبدت الإنسانية . .

لمقاومة القوى الشيطانية للخناس يجب التماس الملاذ في التوحيد . .

ولتحطيم بناء الشرك في وعي الإنسان والمجتمع لا بدَّ من الاعتصام بالقوى الثلاث :

**الربوبية . . والملك . . والألوهية**

**لله العلي القدير**

وبذلك نستطيع أن نقيم مجتمع هابيل ! . . .

مجتمعنا يقوم على المساواة والوحدة بين جنس الإنسان . .

يجب أن نبني مجتمع القدوة الذي كانت تنشده نبوة إبراهيم، وحملنا مسؤوليته النبي الخاتم محمد ﷺ .

لقد فهمنا أبعاد المأساة، ونحن مسؤولون عن حلها . . .

وورثنا سُنّة إبراهيم، ومن ثم يجب علينا أن نعلمها للأجيال الجديدة المثقفة التي تجاهد في سبيل العدالة الاجتماعية .

٣١٦ ـــــــ

كان «توينبي»[١] يرى أن الحضارة الإنسانية مهددة بأعداء مؤبدين: (النشاط المحموم الغبي من أجل الاستهلاك، ثم الاستهلاك، ثم الاستهلاك)...

«ماركوز»[٢] حذّر من أنّ الإنسانية أصبحت (ذات بعد واحد كأنها آلة)...

«إراك فيروم»[٣] مثل «ديجون»[٤] كانا يبحثان عن مدينة (الشخص الواعي)..

«كامو»[٥] رفع صوته أنّ: (الطاعون صار وباءً في طهران وفي معبد الحضارة) وأن: (أطفال أبرياء يموتون من أمراض غامضة)...

«جون أسولت» كان يتحدث عن الأمير المسلح الذي يعاني من المرض الذي لا شفاء منه..

---

(١) أرنولد توينبي: مؤرخ وفيلسوف إنجليزي، وصف نفسه بأنه مؤرخ ينظر في ما وراء التاريخ. ولد عام ١٨٨٩ وكان مجال بحثه هو الحضارة.

(٢) هربرت ماركوز ولد في برلين عام ١٨٩٨م، والإشارة هنا لكتابه الشهير: الإنسان ذو البعد الواحد. الصادر في عام ١٩٦٤.

(٣) إراك فيروم ولد عام ١٩٠٠م بفرانكفورت وعاش في ألمانيا الغربية، ويعتبر من فلاسفة علم الاجتماع والتحليل النفسي وقد عمل في عدد من الجامعات الأمريكية، وقدم إسهاماً متميزاً في دراسة ماركس وفرويد والمقارنة بينهما، كما أن له جهداً هاماً في مجال البحث في علم النفس الديني.

(٤) ديجون لوتروي: من فلاسفة الإغريق في القرن الثالث قبل الميلاد. «المصحح».

(٥) ألبير كامو: (١٩١٣ ـ ١٩٦٠م) وهو روائي فرنسي ومنظر اجتماعي وسياسي وقد وضع الخطوط الأساسية لنمط من الوجودية الفردية المؤسسة على الأحادية الإنسانية.

٣١٨ ـــــــ

إنَّ الساحر الماكر يوسوس في صدور الناس . .

إنَّ الحاسدين دمى في أيدي السحرة . . والليل والأصدقاء يساعدون العدو . .

إبحث عن ملاذ عند إله الفجر لتقتل الظلام بمشرق الشمس عند عرفات . . ثم ترقب : إن آلهة الزيف عادت لترتدي بذكاء قناعاً من زحام الجماهير . . متقلدة أسلحة خفيفة . . . أنت يا وريث هابيل . . إثأر لاغتيال أبيك . .

قابيل لم يمت . .

أنت يا وريث آدم . . يا من سجدت له الملائكة . . الشيطان ينتقم الآن !

أهرب من شره ذي الثلاثة أوجه ، الألوان السبعة ، والسبعين ألف حيلة ! . .

الذي يوسوس في صدور الناس . . إلتمس الملجأ منه عند الله إله الفجر . . ربّ الناس ، ملك الناس . . إله الناس . .

وأنت أيها الحاج . . إبق في منى بعد عيد الفداء ، وارم الأصنام الثلاثة سبع مرات في كل يوم :

كل يوم مثل يوم الأضحية . .

كل شهر مثل ذي الحجة . . .

كل أرض مثل منى . .

الحياة مثل الحج . .

* * *

٣٢٠ ـــــــ

تركت بيتك ووطنك وجئت ضيفاً على بيت الله وأرض الجهاد. .

لقد عاهدت الله عندما صافحت يمينه في الأرض ودخلت إلى محيط الطواف. . وأفنيت النفس في لجة نهر الحب. . .

أنكرت الذات وغسلت نفسك وبذلت وسعك بحثاً عن الماء في قمة الجبال. . ثم هبطت من مكة إلى عرفات. .

ومن فصل إلى فصل تمضي من المشعر إلى منى. .

ورجعت إلى الله بالرجوع إلى مكة. . .

إكتسبت الوعي تحت شمس عرفات المشرقة. .

وجمعت أسلحتك في جنح ظلام المشعر الحرام.

وفي الوقت ذاته عبرت إلى حدود منى في صحبة الآخرين. .

وانهزم الشيطان ساعة هجومك الأول، وسموت إلى ذروة الشرف. . تلك المرحلة التي تعلو على الشهادة. .

وأخيراً. .

ضحيت بكبش في خاتمة هذا الجهد. !.

إلى أين وصلت بعد هذه الرحلة العظيمة المقدسة، وبعد التسامي إلى مراتب سمو الإنسان، وعبر أخطر وأفزع دروب الخلق: الطواف (الوحدة). . والإيثار. . والجهاد. . والشهادة. . وقتال إبليس. . وهزيمة أرض الحب. .؟

ما الذي فعلته؟!. . تضحي بكبش. . لماذا؟!. . ما هي

٣٢٢ ـــــــ

لا تعد لأداء دورك بعد أن أديت دور إبراهيم! . . .

لا تترك بيت الناس! . .

لا تعزل نفسك! . .

لا تبدل ثياب إحرامك بثيابك السابقة . .

غادر منى إلى مكة، وخذ معك إسماعيل! . .

أنت الآن مثل إبراهيم الذي كان أعظم مقاتل في تاريخ البشرية للأوثان . . أنت مثل إبراهيم مؤسس ومرسخ التوحيد في هذا العالم وحامل مسؤولية القيادة في شعبه والقائد المتمرد الذي كانت روحه تعاني وقلبه يحب وأفكاره تضيء . . .

الفأس بيده .

والإيمان يرتفع في قلب معقل الكفر . .

والتوحيد يتألق في وسط الشرك . .

إبراهيم ـ قاهر الأوثان ـ يجيء من بيت (آزر) صانع الأوثان ويحطم الأوثان والنمرود. لقد قاتل ضد الجهل والطغيان والسلبية، وتمرّد على صمت المعاناة وعلى «الأمن» المؤسس على القهر، وصار قائداً لقومه ومؤسساً لحركته وحياته واتجاهه وأمله وغايته وعقيدته الموحدة . . .

أنت الآن مثل إبراهيم . .

قاتل الآن مثل إبراهيم . .

٣٢٤ ـــــــ

لكن الله سيدفع فدية إسماعيلك . .

لن تقتل إسماعيلك ولن تفقده . .

هذا كله ليعلمك أنه يجب عليك الاستعداد للتضحية بحب إسماعيلك بذات يديك في سبيل إيمانك (في المرحلة الأشد إيلاماً من الشهادة) . . .

والآن أيها الحاج العائد من طواف الحب، وأنت في مقام إبراهيم . .

لقد وصلت الآن إلى النقطة التي بلغها . .

عندما وصل إبراهيم إلى هذه النقطة كانت حياته ملأى بالجهاد :

حطم الأوثان، وقاتل النمرود، وصبر على ناره، وجاهد إبليس، وضحى باسماعيله، وهاجر، وتشرّد، وتوحّد، وتعذّب . .

الدرب من مرحلة النبوة إلى مرحلة الإمامة هو الانتقال من الفردية إلى الجماعية، وهو الذهاب من بيت (آزر) إلى حيث يبني بيت التوحيد (الكعبة) . .

في خواتيم حياته، وقد اشتعل الرأس شيباً، وتقدمت به السن بنى إبراهيم بيت الله، ووضع الحجر الأسود، وكان إلى جواره مساعده إسماعيل يحمل إليه الحجارة . .

يا للروعة . .

إبراهيم وإسماعيل يبنيان الكعبة : أحدهما نجا من النار،

والآخر نجا من الذبح، وكلاهما خليفة الله في الأرض، وكلاهما مسؤول أمام الناس. . .

إنهما مهندسا أقدم معبد للتوحيد في الأرض، وأول بيت وضع للناس: البيت العتيق. بيت الحب والعبادة. . البيت الحرام. . رمز خصوصية السماء.

أنت في مقام إبراهيم. .

أصبت مكان وقوفه آخر خطوة في صعوده إلى المعراج في أقرب الطرق إلى الله. . أنت باني الكعبة. . ومهندس بيت التحرير. . ومؤسس التوحيد. . وعدو الأوثان. وعدو الملأ من زعماء القبائل. . والمقاتل ضد الطغيان والجهل والكفر. . الآن إبنِ بيتاً. .

ليس لنفسك، ولا حتى ليكون سقفاً لأولادك، ولا لإسماعيلك. . كلا ولكن بيتاً للناس، ومأوى لأولئك المشرّدين الذين لا مأوى لهم من الذين جرحوا وعذبوا أو كانوا من ضحايا الطغيان وليس لهم مكان يأوون إليه ولا جهة يذهبون إليها. . فالنمرود يطاردهم حيثما ذهبوا. .

لقد أضحى الحرم سراجاً منيراً في ظلمة الليل، وصوتاً مدوياً شق صمت الطغيان الرهيب. . إنه آمن وطاهر ومفتوح للناس. . عيال الله.

كل مكان عداه غير آمن، وغير مشرّف. . بعد أن صارت الأرض ماخوراً كبيراً للبغاء، إنها أيضاً مسلخ حيث غدا كل شيء ممنوع سوى البغي والتفرقة. .

* * *

أنت واقف الآن بمقام إبراهيم، ومقدم على أداء دوره، لكي تحيا مثله، وتكون مهندس كعبة إيمانك.

خلّص أفراد شعبك من حياتهم الفارغة.

أنفخ روح جديدة في أجسادهم بدلاً من روحهم الآسنة، لتغيّر حياتهم التي تشبه المستنقع العميق بعد معاناتهم الطغيان والجهل والظلام..

حثّهم على أن يقفوا على أقدامهم، وأعطهم اتجاهاً وهدفاً ونادِ فيهم حتى يأتوا للحج والطواف..

بعد الولوج في الطواف انبذوا الذاتية، وطهروا النفس، وتبينوا شخصية إبراهيم. لقد عاهدتم الله على اتباع طريقه والله على ذلك شهيد..

* * *

لكي تكون مثل إبراهيم:

* اجعل أرضك حرماً آمناً، إنك في الأرض الحرام..

* بذُل زمانك واجعله كالأشهر الحرام كأنك دائماً في مقام إبراهيم..

* إجعل الأرض مسجداً حراماً..

* فقد جُعِلَت الأرضُ كلها مسجداً لله..

* وانظر!.. هل الأمر كذلك؟.. إن الأمر ليس كذلك.

٣٢٨ ـــــــ

في بيت الناس أو في بيت الله، فما هو الفرق؟ ما الخبر هذا العام؟

عاصفة من البشر تطوف في تدافع وحرارة، الوجوه قد لوّنها الشوق، والقلوب قد انخلعت من العشق، لبّت دعوة الله، فحرارة الإيمان وهدير الإسلام والخوف من الله والوحشة من عذاب الآخرة والخوف من عقاب النار وشوق العبادة، دفعت الأمة إلى الدوران المقدّس.

ومن بين الوجوه: أصحاب النبي، السابقون في الإسلام، أبطال الجهاد وفاتحو بلاد الكفر، محطمو بيوت أصنام الأرض، حماة التوحيد، حفّاظ القرآن، المتعصبون للسنّة وعلماء الدين الحنيف؛ الكل يطوفون ويجدّدون العهد مع إبراهيم. متخلّين عن الدنيا الدنيئة وعن هذا العالم الترابي وعن كل وضيع على سطحها، تعلقت قلوبهم بالله، يطوفون والجنة تتراقص أمام أعينهم، وتغامزهم الحور العين، وتصفر لهم الملائكة من تحت العرش، وجبرائيل ينشر أجنحته تحت خطوات طوافهم!

مَن هذا الذي شقّ العاصفة المتراصّة لطواف المسلمين وخرج من بينهم غضبان ثابتاً هكذا، تاركاً خلفه مدينة **الحرم والأمن والقداسة؟**

وحيث المسلمون كلهم يستقبلون الكعبة، إلى أين يتوجه يا ترى؟ ولماذا لا ينظر خلفه ليرى تلك الدائرة التي تطوف بالناس حول بيت إبراهيم وبصوت النمرود. ويهرولون بين الصفا والمروة

٣٣٠ ـــــــ

ويشترون **جنة الآخرة** بثمن **جهنم الدنيا**، ويستلقون على **الرماد الحار لمطبخ الزعماء** سكارى من خمر العافية، غارقون في لذة اجترار بقايا وفتات موائد النهب.

**الدكتور علي شريعتي**

# الفهرس

مقدمة الناشر ..... ٥
لمحات من حياة الدكتور علي شريعتي ..... ١٥
الفرو المقلوب ..... ٥١
مدخل ..... ٦٠
الخروج عن مألوفات حياتك ..... ٦٤
الموسم ..... ٦٩
التوجه تلقاء الله ..... ٧٠
أدخل إلى الميقات فرداً ..... ٧٥
النية ..... ٨٢
الصلاة عند الميقات ..... ٨٤
محظورات الإحرام ..... ٨٧
الكعبة ..... ٩٤

٣٣٤ ـــــــ

الرسالة الأخيرة ..... ٢٧٧
العودة ..... ٣٢٠
الشهادة أعظم من الحج ..... ٣٢٨